خالد محمد خالد

الوصايا العشر

لمن يريد أن يحيا



الطبعة السابعة

ربيع أول ١٤٢٥ ـــ أبريل ٢٠٠٣

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـــ عابدين

القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ ـــ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣

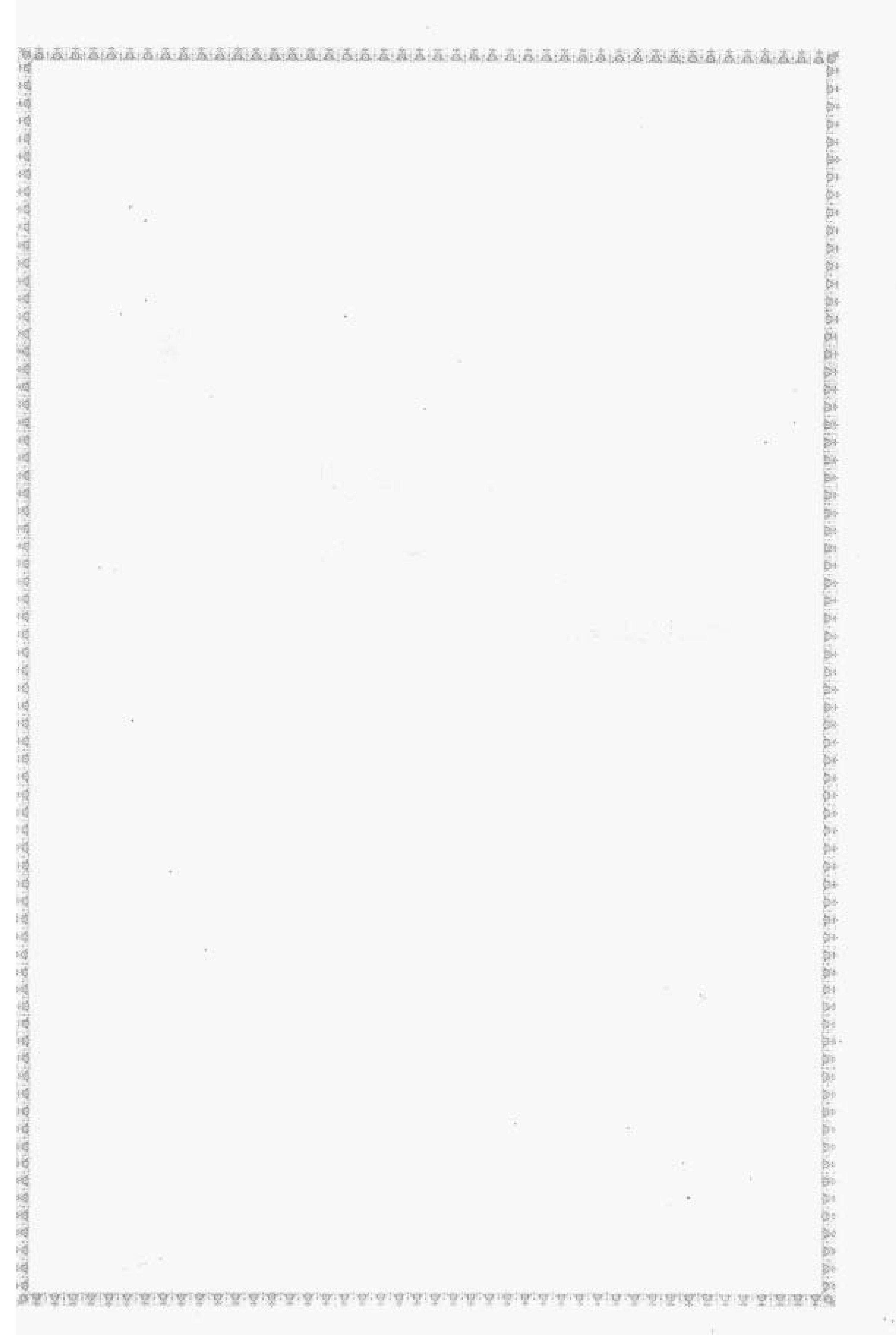
email: elmokatam@hotmail.com

الإهــداء

إلى الشباب أولاً ..

وإلينـا جميعـاً ..

أقدم هذا الكتاب



مقدمــة

أخشى أن تُشعركم كلمة "الوصايا" بأن من ورائها "واعظًا" يُملى عليكم مواعظه. أو يخاطبكم من فوق مِنصَّة الأستاذية ..!!

من أجل هذا، يطيب لى أن أبدأ حديثى معكم قائلاً:

- أيها الأصدقاء.. لستُ واعظًا ولا معلِّمًا. إنما أنا إنسان - مُجرّد إنسان - يحب الناس كثيراً ويرجو لهم الخير جميعًا ..

وهو لهذا، إذا رأى هُدًى أو عرف خيراً؛ سارع فدعا الناس إليه، وبادَر، فحضَّهم عليه.. حتى ذلك الخير الذى قد يعجز هو عن إدراكه - يجد غبطة نفسه جميعا فى أن يدلَّ عليه كل قادر، وينادى إليه كل مُثابر.

* * *

ولو أطعتُ بعضَ خواطرى، لاحتفظتُ بهذه "الوصايا" لنفسى أقيسُ بها تقدمها؛ وأستحِثُّ بها تخلُّفها. وأحملها على السير وَفْقها ما استطاعت لهذا سبيلاً ..

لكن طبيعة "الكاتب" غلبتنى، وأيضًا طبيعة "الإنسان" الذى يرى

مصيره، ومصير الناس كلهم شيئًا واحدًا .. ومن ثَمَّ فواجبه ألا يرى لنفسه وحدها، وألا يفكر لنفسه وحدها، نافعة، أو رأيًا يحسبه صوابًا ..

ورُبَّ مبلَّغ؛ يكون أوعَى من سامع ..

ورُبَّ قارئ؛ يكون أهدَى من كاتب..

ولئن جاءت هذه الوصايا "عشرًا" في تَعدادِها . فإنها "واحدة" في موضوعها ..!!

ففيها جميعًا تَسرِي وحدة الغرض.. وبينها جميعًا يؤلف تتابعُ الغاية..

وإنها لتبدأ وتَنتهي في خدمة محاولة واحدة ـ هي انتصارنا على ضعفنا. وتمكيننا من الشد على "دَفَّةِ" الحياة بأيدينا

* * *

ولم أُرِدْ لهذه الوصايا أن تكون "مدينةً فاضلة" أسوق الناس إليها..

فإن ولاءنا للحرية، ينأى بنا عن أن نُخضع "الروح الإنساني" لأيِّ تخطيط .

وحسب هذه الوصايا إذن، أن تكون للقارئ دليلاً يستعين به على بناء "مدينته الفاضلة" بنفسه، ولنفسه، كما يريد هو، وكما يختار..

وقديمًا، سَمع أحد الحكماء رجلاً يقول في مرارة النادم: "يا ليتني لَقِيتُ مَن يقول لي"

فأجابه الحكيم قائلاً: ـ "يا ليتكَ عملتَ بما كان معكَ" ..!! وهذا حق.. فمع كل منا هداه .

ومَزِيّة الخير قدرته على أن يجعل نفسه واضحًا ومُصدَّقًا، بحيث لا يحتاج إلى براهين تثبت وجوده أو تؤكد قيمته، أو تدل عليه..!!

وهذا بالطبع، لا يُضائِل من قِيمة المعرفة.. إنما يرفع إلى مســتواها، قيمة العمل والمثابرة ..

فلتكنْ هذه الوصايا تذكيرًا، أكثرَ منها تبصيرًا ..

ولتكنْ حافزًا، أكثر منها شرحًا وتفسيرًا ..

* * *

وأنتَ .. وأنا .. قد تُواتِينَا القُدرة على الأخذ بهذه الوصايا جميعًـا. وقد نقدر على بعضها، ونَعجِز عن بعض..

ومهما يكن الأمر، فلا ينبغى أن نيـأس، أو نتخـذ مـن العَجْـز مَرفْـأً يَرْسُو عليه زَوْرَقُ حياتنا ..

بل علينا أن نحاول دَوْمًا؛ ونحقق منها ومن الخير ما نستطيع

وسنجد كمالَنا فى أولئك الذين يستطيعون فى أن يحققوها جميعـا، ويُضيفوا إليها جديدًا.. كمــا سنجده فـى هـذا القـدر المشترك مـن محاولاتنا معًا، ومثابرتنا دائما ..

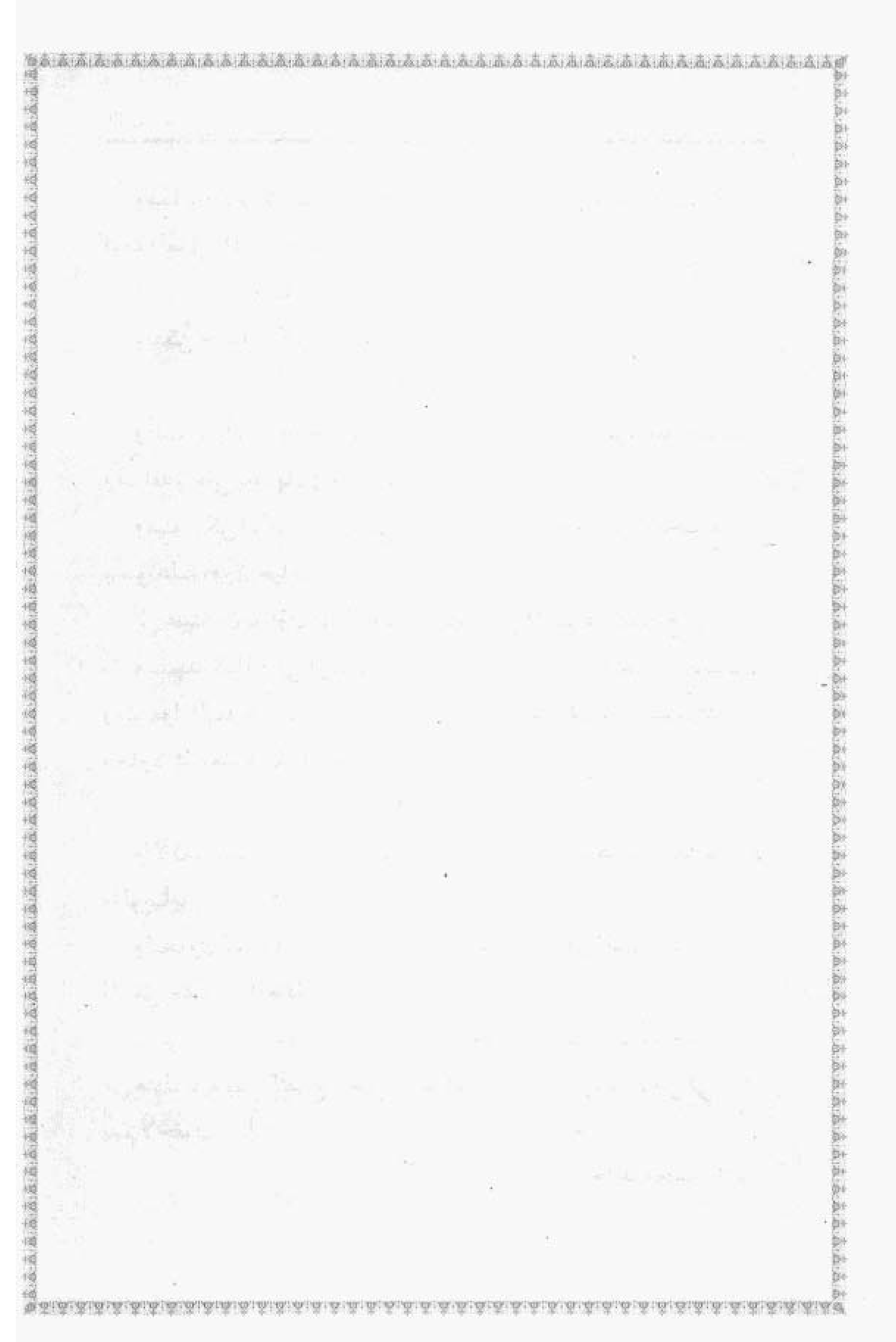
* * *

والآن.. نمضـى سـويًا، نحـن الذيـن نَلتقـى حـول هــذه الكلمــات والوصايا

ولْيحاوِل كلٌّ منا أن يَسـبق ... فـهذا هـو السـباق الشـريف حقــًا.. النبيل حقـًّا ... العادل حقًّا !!

وعلى الذين يَصِلُون أولاً؛ ويبلغون الغاية مُبكِّريــن. أن يُلَوِّحُـوا لنـا مِن هناك بأيديهم. لِنفرحَ بإخوة لنا سبقونا.. وليشد عزمَنا الأملُ فى أننا بهم لاحِقُون !!

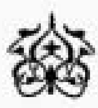
خالد محمد خالد

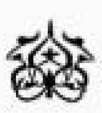


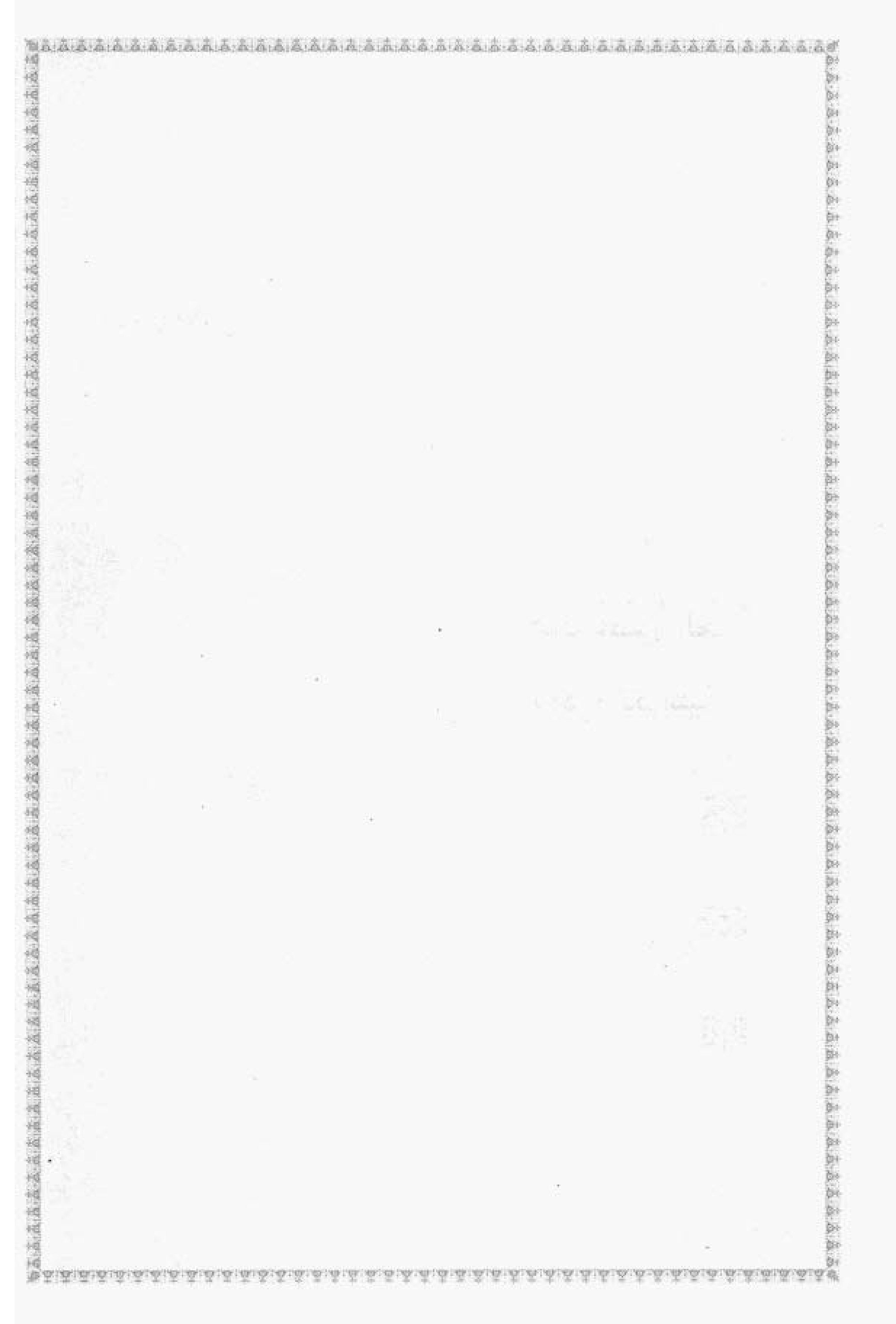
الوَصيَّة الأولى

أهَلّت عُصُورُ الحُبّ
فودِّع الكَراهِيَة ..









منذ متى، والبشرية تَرتِعد تحت وَطأة صَقيع الكراهية، وزَمهرير البغضاء..؟؟

منذ عهد بعيد مُمعنٍ فى البعد.. منذ ساق أحدُ ابنى آدم أخاه إلى المجزر لأن الله رفض قربانه، وتقبل قربان أخيه، ومنذ أحسَّ ذلك القاتل، الوحشةَ الضارية التى خلَّفها له غياب أخيه، وراح يُقَلِّب كفيه الآثِمتين ويحترّ حسراتِ قلبه الخواء الذى فقد الإلفَ، ففقَد أشهَى مباهج الحياة ..!!

منذ ذلك الحين البعيد، والإنسان يصطلى بالكراهية، ويبحث عن الحب؛ ليبثَّ فى نفسه السكينة، وفى حياته الأمن.

والبحث عن "الحب" بحث عن "القانون" الذى يُنظِّم سَيْر الحياة ويضمن بقاءها ..

وعَبر الزمان المديد، كان الرسل والهداة، والمصلحون ينطلقون من ضمير البشرية ليرتادوا المجهول، وليبحثوا لها عن قانون حياتها، وتضرَّجت الأرض بدماء الكثيرين منهم .

اغتالَتهم الكراهية التى شحذت كل قواها؛ لتفتك بهم قبل أن يفتكوا بها..

وكان كُلّما ارتفع للحب راية، خفقت للبُغْض رايات وتحرك ميراث الغابة فى جَيشانٍ صاخب، أحقابًا تِلْوَ أحقاب، زاعمًا للناس أن الحب ضعفٌ إنسانى، وزاعمًا لهم كذلك أن البقاء للأشدّ ساعدًا، الأحدّ نابًا، الأكثر استعارًا بنيران الحقد، والأنانية، والاستعلاء.!! وتعثرت البشرية وخاضت فى مستنقعات الكراهية التى كادت تبتلعها ..

وما أكثر العصور التى عجزت البشرية فيها عن الإحصاء ضحاياها، إذْ كان الضحايا يفوقون كل قدرة على الإحصاء..!!

وما أكثر المناسبات التى جعلتها البغضاء "مواسم حَصاد" تحصد فيها الناس! وكل ما يصطنع الناس لأنفسهم من علاقات التفاهم والإخاء ..

* * *

بيد أنّ الإنسانية تحمل فى طواياها إمكانات صعودها.. تلك الإمكانات التى طالما قاومت البغضاء ورواسِبَ الغاب، وطالما خاضت ضد الكراهية معارك كُتب لها من الفوز، بقدر ما بُذل فيها من الجهد.. كان الحب الذى فطرَ الله الإنسانية عليه، يعمل فى أناةٍ ومثابرة. وكان يتخذ من كل شىء سببًا يَدْعمه، ويُزكّيه

فحين يرتبط الإنسان بالأرض فى قديم الزمان، يتخذ الحُب من ذلك سبيلا لينمّى نفسه داخل ضمير الإنسان وروحه.

وحين يرتبط بالأسرة، يبرز الحب كقانون للعلاقة بين الرجل وزوجته، وبين الزوجين وبَنِيهما ..

وينشر الحب وُجودَه، ويُفسح رحابه. كاسِحًا أمامه البغضاء التى كانت تتطوح تحت ضرباته فى مثل جنون العواصف وعَرْبدتها..

وبعد محاولات وجهود، اكتشف الإنسان أن "المحبة" هي القانون الحقيقي لوجوده، بل للوجود كله ..!!

فالجاذبية، عماد الكون ـ السماوات، والأرضون ... الشموس، والكواكب، والنجوم، والأفلاك جميعًا.. كلها شادَ الله بناءها، وشدَّ أزرها بالتآلف والجاذبية؛ حتى الأضداد يجعلها تعمل معًا، وكأنها شيء واحد، لا أضداد مختلفة..!!

تبيَّن الإنسان أن الحب قوام طبيعته، وجوهر طِينته، وأنه خُلق ليُحِب، ويُحَبَّ.. ليألف ويُؤْلَف ..

تبين له أن "ميراث الغابة" الذى يحضه على الكراهية ليس النارَ التى ستحرق مصيره.. بل النار التى ستنضج مواهبه، وتصهر سبيكة الحب، وتُنقِّى جوهره..

وهكذا، رفع مراسِيَه، وأنزل سفنه فى البحار الدافئة.. ومضى يُنمِّى ثراءه الروحى، وتُباعد بينه وبين ميراث الغابة ..

والأرض التى روّتها البغضاء بدماء ضحاياها، زرَعَها الإنسان وُرودا، وأزاهير ..!!

والأكداس الهائلة، والجبال العالية من جثث الشهداء، رفعت الإنسان عن الوحْل، وأبعدته من المستنقع..

وكل تجربة مريرة خاضتها البشرية واكتوتْ فيها بنار الكراهية، تحولت إلى خبرة غنية، وإلى سطر مُضِيءٍ، فى وثيقة خالدة تعلن سيادة الحب، واقتراب مَلَكُوتِه..!!

وعرفت البشرية الحق وفتحت بصرها عليه، حين عرفت أن الحب يعنى بالنسبة لها، ما تعنيه الحياة ذاتها، وحين أدركت أنه لا الوطن،

ولا اللون، ولا الدّم، ولا أى شىء فى الدنيا من حقه أن يدفع بالمحبة إلى الوراء ..!!

ووقف واحد من الأفذاذ ـ هو محيى الدين بن عربى ـ يعبر عن هذه الحقيقة، فيقول :

لقد كنت قبل اليوم أُنكِر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة ... فمرعًى لغزلان، ودِيرٌ لرهبان
وبيتُ لأوثان وكعبةُ طائف ... وألواح توراةٍ ومصحف قرآن
أدينُ بدين الحبّ أنىَّ تَوجّهتْ ... ركائبه..فالحب دِينى وإيمانى

* * *

منذ عهد بعيد وملكوت الحب يقترب.. ولكنه فى عصرنا هذا يسرع فى اقترابه.

ونحن ـ أبناءَ هذا العصر السعيد ـ سنشهد ليل الكراهية يقترب من فَجره ـ أقول: سنشهد..؟ لا، بل نحن نشهد فعلاً، ولا تحسبنّ هذا إغراقًا فى التفاؤل: بل هو إدراك لحقيقة تسطع سطوع الشمس..

لا تدَعْ فِتن السياسة الدولية تخدعك عن رؤية هذه الحقيقة، فكل ما تراه من اضطراب وقلق ـ إنما هو أشبه الأشياء ببقايا طعام حامض، تُقليه أمعاء سليمة وتلفظه مَعِدةٌ قوية ..!!

إن الحياة الإنسانية تتقدم ولا تتأخر.. تزدهر، ولا تَذوِى..

وحين نبلو أمرها. نجد أن جوهر ازدهارها ـ هو الحب ..

تأمل تلك الظواهر العابرة فى حياتك، وفى حياة الناس؛ تجد الحب جوهر كل ازدهار ..

إذا ذهبتَ للقاء عروس ترجوها؛ ارتديت أبهى ثيابك ..

إذا زارك صديق تحبه؛ تحول بيتك إلى عُرس ومهرجان ..

إذا أحببت عملك؛ تفانيت فى أدائه وإتقانه ..

إذا أحببت زوجتك؛ تمنيت أن تنجب منها بنين وحَفَدَة..

إذا أحببتَ قانونًا ؛ احترمتَه ..

إذا أحببت أستاذً؛ أحببت المادة التى يدرسها..

إذا أحببت وطنك؛ لم تفكر فى خيانته..

إذا أحببت الحياة؛ لم تفكر فى الانسحاب منها ..

وكلنا تمر بنا تلك اللحظات التى تتفجّر فيها أنفسنا محبة وشوقًا، وصداقة ووُدًّا ، فإذا بأفئدتنا تهفو نحو كل خير، وتفيض توقيرًا واحترامًا للحياة، وتبدو الدنيا بهيجة، والناس طيبين، والمستقبل مغردًا ..!!

لحظات الحُبُور هذه، لا تكاد تُواتينا صافيةً مُشِعَّةً إلا حين تحيا نفوسنا فى حالة حب ظافر..

ونحن نظلم الحياة حين نحسبها فقيرة أو بخيلة بهذا الحُبُور، فالحق أنها تُعطِى منه بغير حساب لمن يهيئ نفسه لِتقبُّله، وذلك بأن يطهر قلبه من البغض، ويحيا فى وفاق مع نفسه ومع الناس..

إن الإحساس بالجمال، وبالمحبة، وبالحياة قريب من كل فؤاد ذكى، وكل قلب سليم..

والقلوب الذكية السليمة، هى التى تدرك روح الخير وتحياه. وروح الخير فى عصرنا هذا يحظى بأوفى قدر من الوضوح وأوفى قدر من الاتحاد مع روح العصر ذاته..

فمن مزايا عصرنا هذا أنه عَرف ـ وبوسائله هو ـ كل القيم

الصحيحة، واللازمة لاستمرار الازدهار البشرى..

وعلى رأس هذه القيم جميعًا، وَضَع الحب، وأعْلَىَ رايَتهُ.. الحب الخالص القوى النامى، الذى يقول للكراهية وداعًا ..!!

وكل مظاهر الكراهية المتبدِّية فى عصرنا هذا، تُمثل ـ لا غير ـ آلام المَخاض الذى يُبشر بالوليد ويُرهِصُ به..

وهذا الوليد، هو عالم لا بُغض فيه أبدًا، ولا حقد فيه أبدًا..

وأنت ـ يا من تتلو هذه السطور الآن ـ واحد من الجيل الذى اصطنعته الأقدار السعيدة ليقوم باستقبال ذلك الوليد الْمُهِلّ؛ حيث الحب الوثيق، والإخاء العميم. فودِّع الكراهية، وخذ مكانك فى صفوف المحبين الوعاء..

أنت واحد من الجيل الذى وُضعت على كاهله تبعات الميلاد.

ميلاد الإنسانية التى طال شوق الله إليها.. والتى من أجلها أرسل الرسل المباركين. وأيَّد جهاد الرواد والمُصلِحين..

الإنسانية التى تختفى الكراهية من حياتها، والتى تقود المحبة العظمى سلوكها وتهدى خطاها.!!

الإنسانية التى يقول كل فرد فيها لأخيه: يا أنا !! فاعمل من أجل أن يقترب هذا الميلاد.

ومهما يكن عملك فى هذا السبيل، فلن يكون عملاً ضائعًا. لأنك لست وحدك.. بل هناك ملايين من الناس مثلك مبثوثون فى الأرض. يحملون الشّعَل المضيئة. وتموج أفئدتهم بمشاعر الود الخالص.. يتكلمون لُغَة الحب ويسيرون تحت رايته..

وإنهم على بُعد ما بينهم من مسافات، ليعيشون معًا وإن لم يتم بين

أشخاصهم لقاء.. وإن مشيئتهم الواحدة، لتجعل من شَتاتِهم أمة واحدة. وهؤلاء - قبل سواهم - هم لَبِناتُ العلم الواحد الذى ننتظره..

لستَ وحدك إذن، فانهض وخذ مكانك بين رفاقك العظام.!

لا تُسئ الظن بعصرك، ولا تحسب - إذا كنت محباً - أنك "عصفور بين غِربان" أو أنك "صالح فى ثمود" !!!

فالحق أن "غربان" البشر تنقرض.. وسيطوى الغد القريب كل بقاياها التائهة، وستَخلُصُ الحديقة للعصافير المغردة ..!!

إن الحياة تفتح ذراعيها الحانيتين لتضم إلى صدرها الودود، كل محب ودود..

وإنها لتُنادِى الطيبين الوُدَعاء: - إلىَّ يا بُذُور الغد المجيد.. إلىَّ يا طلائع البشرية المقبلة..!!

وإنها لَتدَّخر لهم كل طيباتهم، وكل مقاعد الشرف لديها.

لم تعد الحياة الإنسانية تأبه إلا للبطولات التى تنطلق من الخير وتعمل وَفق أغراضه .

ولقد أنزلت عن عرش التاريخ جميع الذين نسجوا مجدهم من التسلط والاستعلاء وبث الكراهية.. ورفعت مكانهم ذوى القلوب الكبيرة الذين بسطوا أيديهم بالخير، وبشَّروا بين الناس بالحب .

لقد أنزلت "جنكيزخان" ، ورفعت "بوذا" ..

طوت أعلام "بونابارت" ، ونشرت أعلام "باستير" ..

دمّرت صولجان "هتلر" ، وقدَّست مغزل "غاندى"

لم يعد التاريخ يقف عند ذوى البأس والسطوة.. بل مع ذوى المُروءة والحق .!!

لم تعد تبهره بطـولات الفتح العسـكرى ولا السياسـى .. بـل تبـهره بطولات الفتح الإنسانى الذى يجمع الشّتات، ويقاوم التمزُّق والكره..

لم يعد ينثر الورُود على الذين يضعون أنفسهم فوق الناس.. بل على الذين يبذلون جهودهم لخدمة الناس...!

فإذا بذلْتَ من قلبك للآخرين حُبًّا، وصفاءً؛ فلن يكون قلبـك موضـع السخرية، ولا الجحود .

فانهض، وخذ مكانك بين رفاقك العظام ..

* * *

إن معايير الحياة الإنسانية قـد اسـتقامت، ونجـتْ مـن قُـوى الزيـف والمُناوَرة .. وإن المحبين الطيبين، لن يُسلموا بعد اليوم للنكـران، ولا للضياع .

من يزرع البغضاء؛ يحصد القطيعة..

ومن يزرع المحبة؛ يَجْنِ الحياة..

لقد استقام الميزان تمامًا، ولن يَعْتَورَ كفتيه اضطراب..

إذا أحببت الناس صادقًا؛ فلن يكرهوك أبدًا ..

صحيح أنهم قد يفعلون ذلك بعض الوقت، لكنهم لن يلبثوا إلا قليلاً ثم يعودون إليك تسبقهم قلوبهم..

ذلك أن الناس الذين يكرهون إنسـانًا يحبـهم، إنمـا يدفعـهم لـهذا إحساسهم بأنه متميز عليهم، فهو يحب، وهم يبغضون..

وهو يسمو وهم يهبطون .. ومـن ثـم يتخـذون نفس الموقـف الـذى اتخذته بعض الأمم من أنبيائها حين قـالوا : ﴿أخرجوهـم مـن قريتكـم إنهم أناس يتطهرون﴾ ..!!

لكن التفوق الأخلاقى يَحمى نفسه ويَفرض كلمتـه.. مـن أجـل هـذا سرعان ما يكشف المبغضون خَطَل موقفهم، فيعودون مهرولين إلـى مـن أحبـهم ونفـروا منـه.. ويجـدون فيـه واحـةً يلتمسـون عندهـا السـلام والراحة، وتضع عنهم أوزَارهم التى أنقضَتْ منهم الظهور ..

ذلك أن أولـى مزايـا الحـب. قدرتُـه علـى منح الآخريـن الثقـة بـه والطمأنية إليه ..

وهكذا، لا يذهب حبك للناس سُدًى ..

فانهض، وخذ مكانك بين رفاقك العظام ..

* * *

ولكنْ، كيف تبدأ؛ لكى تكون مُحبًّا..؟؟

طالمـا قـالت لـك الوصايـا الأخلاقيـة: أحِـبْ جـارك.. أحبـب إخوانك.. أحبب والديك.. أحبب عملك..

وكل هذا حق ..

بيد أننى أريد أن أسبق كل هذه الوصايا بوصية أخرى، هى: "أحبب نفسك" ..!!

أجل.. أحبب نفسك.. أحببها دومًا وأحببها كثيرًا.. فما لم يجمعـك بها حب عظيم، فلن تكون أبدًا محبًّا، ولن تكون قط محبوبًا.!!

قـد يبـدو هـذا الحديث غريبًـا، إذْ طالمـا ظننَّـا أن العكس هـو الصحيح.. حتى لقد وضع أدبنا الشعبى، وأمثالنا السائرة حكمـة تقـول "من أحب نفسه كرهه رفاقه" ..

لكن الحق، أن من أحب نفسه أحب رفاقه وأحبه رفاقه؛ .. لأن الـذى يُعطِى، هو الذى يملك.. والعاجز عن حب نفسه، هو عن حب غيره أشـد

عجزًا ..!!

وصدق أفلاطون حين قال: "إن أشق أنواع الصدقات كافة، صداقة المرء لنفسه" ..!

لقد مرَدْنا على اعتبار حب النفس، والأنانية وجهين لشىء واحد، وهذا ظلم مبين ..

فالحب .. ما الحب ..؟؟

إنه نشاط بهيج تُعبِّر به الروح عن نفسها ..

إنه رغباتنا فى حالة تَشوُّفٍ وحُبُور..

فكيف يتحقق خارجًا عنها..؟

كيف نمنحه غيرنا . ونمنعه أنفسنا ..؟!

إننا نحب الأشياء التى نَرغبها ، ونجد فى التعلق بها مُعاناةً ممتعة، وفى الفوز بها سعادة فائقة..

فنحن إذًا. نحب بأنفسنا .. ونحيا لأنفسنا ..

فإذا قيل لنا ، أحبوا أنفسكم. كان هذا ، الاستهلالَ الرشيدَ، لكل حب رشيد.

وحبك لنفسك مختلف عن الأنانية اختلافًا كبيرًا ..

فالأنانية ليست حبًّا أبدًا. إنما هى تعصب، وانطواء، وغرور.. بينما يتضمن دائمًا التسامح، والإيثار، والفهم..

أحبب نفسك؛ لتستطيع أن تحب الآخرين.

أحبب نفسك، ولا تمقتها: فالذين يمقتون أنفسهم يتحولون إلى طلقات مقذوفة فى حرب أهلية .!!

وما ظنك سائلى، وكيف أحب نفسى؟

فأنت تحبها فعلاً، ولست بدعوتي إياك إلى حبها، أدعوك إلى إيجاد ما ليس موجودًا.. إنما أدعوك إلى تنمية هذا الحب الذى برأ الله عليه كل حىّ.. وأدعوك إلى ترشيده ورعايته؛ كما يرعى الأب طفله النضِر.. وكما يتعهد البستانى الحاذق براعِم الحديقة وورودها..!!

وأول التزاماتك تجاه حبك نفسك، أن تعرف قيمتك فأنت - أيها الصديق - إنسان طيب..

مهما تكن عثراتك وأخطاؤك، فأنت إنسان طيب، ولو لم يكن فيك إلا رغبتك الملحة فى أن تكون أفضل مما أنت. لكفاك هذا..

إن عوامل الشر الكامنة فى أنفسنا، والمنتشرة حولنا، تطارد نوازع الخير، وتتحداها فى إصرار ومع هذا، ففى أعماقنا دائمًا نزوع الخير، وحنين إلى الكمال، ومحاولات تكبو مرة، وتنهض مرات..

فلا تكن بَاخِعًا نفسك على عَثراتها..

ناقش نفسك فى أخطائها.. لكن لا تمتهنْها..

الْوِ زِمامَها عن السوء.. لكن لا تضطهدها..

إن أكثر الذين يُضْمِرون للناس العداوة والحقد، إنما يصدرون عن خراب داخلى فى أنفسهم التى كرهوها واضطهدوها..!

فإذا أردت أن يجد الناس منك السلام والصداقة، فابدأ بأن تمنح نفسك سلامًا وصداقة. فإن العالم لن يتلقى منك إلا ما تعكسه عليه حياتك الباطنة، وسلوكك النفسى.

أما إذا سلبت نفسك راحتها، فقد يُرشحك ذلك لمنصب كبير بين الأشقياء الذين يسلبون الدنيا راحتها.!!

إن نفسك جديرة بحبك وباحترامك.. لأنها ليست ذرة تائهة فى

خَواء.. بل هى حلقة ثمنية فى سلسلة الكيان الإنسانى... هى عضلة عاملة من عضلات القلب البشرى..!!

وإذا وقفت أمام المرآة لتصلح هندامك؛ فاذكر أنك تبصر فى المرآة كائنًا سحريًا تمثل فيه كل خصائص النوع الإنسانى بجميع بؤسه وجميع عظمته..!!

إن الحب العظيم الذى كان يعمر قلب "محمد" ، و"المسيح" عليهما السلام .. وقلب "بوذا" وغاندى، موجود فيك ومعك.. وإنك لتملك هذا الرصيد. بيد أنك تجهل وسائل استثماره. ولا تبذل إرادتك جهداً كافيًا لبعثه ونشوره.

إن أساتذة الحب ورواده الذين عاشوا ، أو يعيشون فوق ظهر كوكبنا ، لم يفعلوا أكثر من أن تعهدوا زهرته التى غرسها الله بيمينه فى قلب كل إنسان.

تعهدوها بالسُّقْى، وبالرعاية حتى أعْطَتْ خَبْئَها ، وعِطرها ، وشَذاها .

ولقد بدأوا جميعًا بأن أحبُوا أنفسهم..

أجل ـ لقد أحبوا أنفسهم.. الأنبياء ، والهداة، والرواد، وكل عظيم صادق العظمة من بنى الإنسان..

بدأوا بحب أنفسهم، حتى إذا حدّثوا الناس فيما بعد عن الحب ودعوهم إليه، سارت كلماتهم كالمقادير..!

والدليل على أن حبهم لأنفسهم كان كبيراً ـ أنهم نَدَبوها للأعمال الجليلة، وللجهاد الكبير من أجل خير الإنسانية كلها واختاروا لها أشقّ وأعظم رسالات الحياة.. وجندوها تجنيداً كاملاً لقضية الحق، والخير، والرحمة، والحب..

وهذا، يمنحنا المفهوم الصحيح لحب النفس.

فحبك نَفْسَك. لا يعنى الانطواء عليها وتدليلها..

لا يعنى تركها ترعى مع الهمَل. وتختار من الواجبات والتبعات نفاياتِها الهزيلة..

لا .. ليس ذلك كذلك أبداً..

وإنما حب النفس إذا كان صادقًا ورشيداً؛ يدعو صاحبه إلى إيثار الواجبات الثقيلة، والتبعات الرفيعة، والتحليق عاليًا فى آفاق العظمة.

فليس يحب نفسه حبًا سويا، من يجعل غاية سعيه، أن يبحث عن حِنطةٍ لِرَحَاه..!!

إنما هو من يزداد بوجوده رصيد الحياة، ومن يترك دنيا الناس يوم يتركها، وقد مهرها بتوقيعه، وضمخ هواءها بشذاه..!

فحبك نفسك إذًا يعنى:

* أن تعيش معها فى وفاق تام..

* وأن تجعلها دائمًا موضع حفاوتك وتقديرك..

* وأن تَندُبَهَا لأكثر مهام الحياة جلالاً وسُمواً.. فإذا أحببت نفسك؛ ألفيتَها تنطلق وراء الحب فى كل مكان..

وبغير عناء، تذوب الثلوج، وتنماع الحدود التي تفصلك عن الناس. وتعثُر حياتك على شعارها الذى سيكون: "جميع الناس إخوتى" ..!!

وأنت لابُدَّ تعلم أن الاحتفاظ بروح السلام والود بينك وبين الناس مهمة صعبة.. لكن حبك الذى أنضجْتَه داخل نفسك، قادر على أن يجعل الصعب سهلاً، وولاؤك الوثيق للحب، كضرورة إنسانية، وقيمة عُلْيَا -

سيجعلك فى كل نزاع، خيرَ ابنَىْ آدم، وأزكاهما نفْسًا.

وسوف تلتقى فى الحياة بناس تَعِبق منهم كل عطور التفوق الأخلاقى.. وهؤلاء لن تتكلف حبُهم، لأن سموهم ينادى إليهم كل نظير. وهم لا يحملوننا على حبهم فحسب، بل وعلى حب البشرية التى أنجبتهم..!

وستلتقى بآخرين، تعرفُ منهم وتنكر.. لا يشجعون على حبهم بل ولا على الاقتراب منهم. فيهم الكثير من أخلاق المستنقع..!!

وهؤلاء فرصة لك فاغتنمها.. إنهم هم الذين سيكشفون عن جوهرك، ويفتحون عينيك على المستوى الذى بلغته نفسك فى حبها وتفوقها..

إنك لا تأتى أمرًا غير عادى، حين تحب من يستحق أن تعطيه حبك.. بيد أن العظمة الوافية هى أن تمنح نفس الحب للذين يعجزون عن حبك.. بل للذين يكافئونك على الحب بالعداوة..!!

* * *

وإذا كان الحب فطرة، فالتعبير عنه فن عظيم..

وعلاقاتك بالناس، لا يكفى أن تقوم على المجاملة. بل ينبغى أن تضرب جذورها فى الأعماق.. وأن تقوم على الحب الكامل الوثيق.. ولكى تدرك هذا ؛عليك أن تبذل جهودًا دائبة ليزداد ثراؤك الروحى من:

* التسامح ..
* التفوق ..
* التفاؤل ..

فهذه الثلاث تشكل أعصاب المحبة، وشَرايينها.

* * *

فلا بُدَّ من التسامح لكى تكون مُحِبًا.. ذلك أن الناس صنوف شتى.

ولكل منهم شِرْبه، وطبيعته، ومُنَاخهُ.. ومهما يذهب أحدنا صاعدًا، فإن له زَلاتٍ، وخطايا.. ومهما يذهب أحدنا هابِطًا، فإن له حسنات، ومزايا..!!

فضع فى حسابك دومًا أنك تتعامل مع الجزء الأفضل من الناس ولا تكن قَوِىَّ الذاكرة تُجاهَ إساءاتهم، وكن قويًا تلقاء مزاياهم وخيرهم..!!

لن تجد أبدًا، الإنسان الذى ما ساء قط.. الإنسان الذى تصفو مَشارِبه.. لكنك واجد دائمًا الإنسان الذى يَنطِوى على خير، ولو ضَئيل..!!

فتعرَّف إلى هذا الخير فى كل من تَلْقَى، وتعاملْ مع هذا الخير كثيرًا كان أو قليلاً. وحاول أن تُنمِّيه بتسامحك وتساميك وَحَدَبِكَ..

أجل، ضع عينك على اللمعة البيضاء فى كل فرد تلقاه، ولا تتتبع عورات الناس، ولا تركز على ضعفهم فإن بك ـ مهما تكن قوةُ نفسك ـ ضعفًا لا تحب أن يركز الآخرون عليه..!!

إن الفرد الكامل، لا وجود له بين صفوف الناس.

ولكن الكمال كامن فى قدر مشترك من جهودهم جميعًا.. وإذا ساءك من أحدهم أمر، سيسرك منه أمور، فَوَطِّدْ عزمك على التسامح والفهم؛ تظفر بقلوبهم، وتعاونهم على ما ترجو لهم من ارتقاء.. وحين تدفع السيئة بالحسنة، والتجهم بالتهلل، والأذى بالصفح، فلن يكون لك على ظهر الأرض خصوم؛ لأن روحك الطيبة، ستجذبهم طائعين أو مكرهين. وسيمسُّهم منها شعاع مقدس فإذا هم وُدَعاء مُحبُّون..!! أهناك بين أرباح الدنيا كلها ومكاسبها جميعًا، ربح أوفى من هذا أو مكسب

أغنى وأبقى..؟؟

لقد فعل ذلك "إبراهام لنكولن" مع خصوم له ذوى كيدٍ مُزعج..

ولما عُوتِبَ فى تسامحه معهم وقيل له: لقد كان الإجهاز عليهم عملاً نقيضه العدالة. أجاب قائلاً:

ـ وهل فعلتُ غير هذا..؟؟ لقد أجهزتُ عليهم كأعداء، حين حولتهُم إلى أصدقاء..!!

ربما تقول: ومع هذا، فقد انتهت حياة "لنكولن" برصاصة حاقدة!!

وأجيبك: نعم، لقد ذهب "لنكولن" ضحية بُغض أهوج وكذلك ذهب "غاندى"، ومن قبلهما "سقراط"، وكثيرون من طرازهم الرفيع..!!

بيدَ أنَّ ذلك لا يعنى أن حياتهم كانت باطلة، وأن سلوكهم المتسامح الودود كان ساذجًا، وإنما يعنى أن البشرية لا تزال بحاجة إلى المزيد منهم.. المزيد من مبادئهم وسلوكهم..

أجل.. لكأنَّ قدَرنا الإنسانى يستحثُّنا، ويقول لنا: انظروا.. إنَّ أساتذة الصفح والحب يسقطون صرعَى الضغينة.. إن أكثر الناس بُعداً عن مَظِنَّة القتل غِيلَة، يذهبون غيلة..!! إن البغضاء يُجَنُّ جنونها كلما أبصرت رائداً جليلاً يقود الناس لِتحدّيها، وكلما أحست اقتراب نهايتها.. فضاعِفوا جهودكم، وتقدموا صوب الوحش الكريه.. إنه يترنح، فأجمعوا أمركم ولا تدعوه يُفلِتْ..!!

هذا ما ينبغى أن نفسر به مصرع كل محب يذهب شهيد حبه، وكل متسامح يذهب شهيد تسامحه..

على أن هؤلاء ـ فى التحليل النهائى لهم ـ لم يذهبوا ضحايا تسامحهم وحبهم، بقدر ما ذهبوا ضحايا لمكايد السياسة ومؤامرتها

الخبيثة..!

أما التسامح والحب اللذان تواصوا بهما، فقد أكسبَاهُم قلوب أفضل الناس حين كانوا بينهم.. وتقديسهم جميعًا يوم حلوا عنهم..!!

* * *

لا بُدَّ من التفوق؛ لكى تكون محبًا.. ذلك أن الحب بذل لا ينتظر العِوَض، وتتويج لحياة صَفَّتْ جناحَيْها، فطارت محلقة وراء الخير الأسمى..

فالمحب، أبعد الناس عن الحقد، وأبعدهم من الغضب..

والإنسان المتفوق لا يحقد. ولا يطول غضبه إذا غضب..

ذلك أن الحقد عزاء يقدمه الفاشلون إلى أنفسهم العاجزة.. كل امرئ حقود، ليس فى حقيقته سوى أنقاض حَىٍّ، وبقايا جُثمان..!! ولن تجد إنسانًا مطمئنًا إلى نفسه، يحقد على الآخرين مهما يسبقوه..

والحقد حماقة كبرى ـ لأن الحاقد إنما يضاعف مَتاعه وشقاءه. ويُصْلِى رُوحه المقهورة سعيرًا..!!

فلا تَجعلْ الحاقدين يظفروا بك، ويضمّوا عضوًا جديدًا إلى عصابتهم الفانية.!!

وذلك لا يتطلب منك أن تتجنب الحقد وحَسْب.. بل ويقتضيك ألا تقاوم الحقد بحقد مثله..

مهما تُوجَّهْ إليك سهام الحق.. تجنب أن تصير حقودًا..

قاومها بثباتك، وبفضائل نفسك، وبحيلتك الواسعة الكريمة. هناك حكمة صادقة تقول: "لا تقاتل التنين، حتى لا تصير تِنِّينًا مثله"..!!

فلا تَحقدْ على الحَقُود، حتى لا تصير حقُودًا مثله..

احْمَدِ الله إذ جعلك عالِيَ النفس، كبير القلب.. وإذا ألجأتك أحقاد الآخرين إلى مقاومتها؛ فقاومها بأسلوبك أنت. لا بأساليبهم.. وتَصرّفْ تصرُّفَ عظيمٍ لا تحمله أخلاقُ الصغارِ على أن يصير صغيرًا..!!

ولكي يَسْلَسَ لك هذا الموقف النبيل دومًا.. تعوّد ألا تغضب، وألا يلبث غضبك إلا قليلاً..

أنا أعلم أن الغضب فى طبيعتنا، ولا بُدَّ للناس أن يغضبوا أحيانًا.. ومن العسير ألا نغضب أبدًا.. لكن من اليسير ألا نغضب كثيرًا.. ومن اليسير كذلك ألا يكون غضبًا أرْعَن مُهْتاجًا..

إذا غلبك الغضب؛ فاغضبْ "غضبًا مُفَكِّرًا"..

والغضب المفكِّر، لا ينقذف من أعصاب خائرة، ولا من ذمّة جائرة.. بل يكون انفعالاً. فيه حمية، لكن له منطق.. فيه انتقاض، لكن معه كابح.. وفيه ذكاء كريم يدور حول الأزمة ويفسرها.. وسرعان ما ينتهى الغضب ويذوب..

وصف رسول الله ﷺ الإنسان المتفوق المؤمن بأنه "بطئُ الغضب، سريع الْفَئ"..

وإنه لَوصفُ حاذقٌ، بقدر ما هو صادق..!!

فإذا كان لا بُدَّ من أن نغضب، فينبغى ألا يَجِئ الغضب حتى نستنفد كل محاولات دفعه.. ثم علينا ألا نسمح له بطول المُكْث وحَطِّ الرحال.

تَفوّقْ على حوافز الغضب، بفلسفة الصَّفْح..

وأطفِئْ صُراخ الاستفزاز، ببرد الثقة..

وحاولْ أن تعرف كثيرًا، وعندئذٍ ستغفر كثيرًا..!!

كان "الفضيل بن عياض" الصوفى الكبير إذا اعتدَى عليه بالسباب

مُعتدٍ، رفع كفيه متبتلاً وقال:

ـ "اللهم إن كان كاذبًا فيما رماني به، فاغفر له.. وإن كان صادقًا، فاغفر لي" ..!!

سُلوك رائع من قِدّيس..! أليس كذلك ..؟؟

ومع هذا، فليس القديسون وحدهم هم الذين يتخذون هذا الموقف الحكيم، بل ويتخذه كل فَطِنٍ أريب يَضِنُّ على الغضب بذرة من أعصابه وسكينة نفسه..

كان "دزرائيلى" إذا أثاره أحد وأغضبه، كتب اسمه فى ورقة، ثم تأملها جيدًا، ثم مزّقها، فينتهى غضبه من فوره.. وبهذه العادة الصالحة استنقذ راحة نفسه من براثن الغضب ولفحات الغيظ..!!

وأنت قادر بالمثابرة والتعود أن تتفوق على الغضب ليظل قلبك سليمًا وَدُودًا..

لا تجعلْ غضبك "نابحًا" بل اجعله وديعًا، وعابرًا.. وكن سريع الفئ والرضا..

* * *

ولا بُدَّ لك من الحماسة والتفاؤل، لكى تكون محبًّا فالحماسة، والتفاؤل عَصَبُ كل حب سديد، كما أنهما مثوبة الحب يهديها إلى ذَوِيه..

إن المحب يرى الحياة ببصرته الثاقبة، ويُضفى عليها صفاء روحه ما ينحّى عنها الكآبة.. وهو لا يفعل هذا بخيال فنان. بل بِحُنْكَةِ مُجَرِّب وفطرة إنسان، لأن الحب لا يصير منهجًا للنفس وللسلوك إلا بعد أن يجتاز الإنسان، تجارب كُثْرًا يواجه خلالها من أسرار الحياة، وبواطن

الأمور ما يجعل التشاؤم خُرافة ولَغْواً.

فتفاءَلْ كثيراً، وتفاءلْ دائمًا إذا أردت أن تحتفظ لحبك بدرجة الحرارة الملائمة واللازمة، وَرَعْرِعْ روحك دائمًا بالحماسة والتطلع والشوق..

إن التفاؤل والحب يُسقيَانِ بماء واحد.. كلاهما فَرح، وتَهلُّل وثقة وطمأنينة..!!

والحق أن ليس ثمة فى واقع حياتنا وتطورنا ما يُغْرِى بالتشاؤم، وَيصُدُّ عن التفاؤل..

ولقد كان المتفائلون فى كل العصور على الصواب.. فها نحن أولاءِ نرى البشرية لا تزداد إلا تَقدُّمًا، وإلا صعودًا..

فتفاءلْ، وتَهلَّلْ ولا تَحصُرْ تفاؤلك داخل حدود..

إذا قيل لك: إن الأرض ستكُفُّ عن دورانها حول الشمس فقل: لا بد أنها ستغير قانون حركتها، ولكنها لن تَبيد..!!

إذا قيل لك: إن الشمس ستختفى غداً.. فقل: لا بد أن شمسًا أخرى أكبر منها وأبهى، ستأخذ مكانها..!!

إذا رأيت حربًا عالمية تجعل ما حولك حصيداً. فقل: إن البشرية تتقايأ آخر أقذار أمعائها..!!

لا تظنَّ هذا الحديث شِعراً، وإن بدا فى مثل خيال الشعراء.. فالتفاؤل مهما نسرف فيه ينطوى دائمًا على صدق تاريخى، ويستمد صدقًا كبيراً من معالم تطورنا الإنسانى..

فنحن منذ وجودنا على الأرض نُبصر قُوى الحياة باقية فى مكانها مُثابرة على أداء دورها..

وكل هذه القوى تُجدِّد باستمرار حيويتها، وتُعوِّض ما يسقط منها عَبْر السفر الطويل، وتدفع بالحياة الإنسانية إلى غرض لا يبدو أن من سِماتِه التدهور أو الفناء..

تَفاءلْ دائمًا في حماسة وثقة..

تفاءَلْ لنفسك، ولمن حولك، وللناس جميعًا..

والآن، وقد رُضْتَ نفسك على حب نفسك.. وعلى حب غيرك. فوسِّع دائرة حبك حتى تسع الناس جميعًا.

لا تَخفْ أن ينفَد أو يَغِيض، فالحب يزيد بالإنفاق ويموت بالشح والإمساك..!!

تخطَّ بحبك جميع التخوم والحدود..

ابسط ذارعيك، وعانق البشر جميعًا ولا تَلْوِ زمام قلبك إلا عن قُوَى الشر التي تعوق تقدم الإنسان، وتُهدِّد أمن الحياة وتُنكِّس ميزان العدالة في الأرض.

وفيما وراء ذلك لا تدع اختلاف الدين، ولا اختلاف الجنس، واللون، ولا اختلاف المذهب والرأي. يُضائل من حبك المفيض، أو يصده عن السبيل.

أحِبب البشرية الخيِّرة كلَّها. وقل: "هذه أسرتي"..

ولكن اذكر أنك لن تستطيع أن تُجيد حب العالَم، إلا بعد أن تجيد حُب الوطن... فحبك الآخرين البعيدين منك يبدأ تدريبه هنا، مع عشيرتك وأهلك..

وكما قلتُ لك. إنك لن تحب الناس، حتى تحب نفسك.. أقول لك ـ لنفس الأسباب ـ إنك لن تحب العالَم، حتى تحب الوطن..!!

وأيضًا، لن تحب وطنك حبًّا خالصًا - إلا إذا أحببت العالم حبًّا خالصًا..

ذلك أنه إذا كانت الأرض التى تعيش فوقها، ويضم ثراها رُفات آبائك، وتستقبل من بعدك أبناءك وحفدتك..

إذا كانت هذه الأرض وطنك، فالعالم هو وطن هذا الوطن..!!

وإذا كان الوطن "أباك" فالعالم "جَدّك" ..!!

فإذا كنتَ "ابن" وطنك .. فأنت "حفيد" عالمك..!!

والحب الإنسانى الذى يقف عند حدود الوطن، لا يكون فى حقيقته حُبًّا - بل تعصبًا.

والحب الذى يتخطى الوطن إلى العالم، لا يكون حُبًّا، بل جُحودًا، وإفلاسًا..!

وأنت بحاجة دائمة إلى التركيز بقدرٍ أوفى على حب الوطن، لا تَعُصُّبًا، ولكن رعاية لضرورة الحب ذاتها؛ لأن متاعب الحياة - عادة - لا تَجِئ من الناس البعيدين منا بقدر ما تجئ من الذين تجمعنا وإياهم روابط العيش والعشرة الدانِية، حيث تولد العلاقات المتبادلة والمباشرة كثيرًا مما يسر ويسوء. فما لم نكن مزودين بالفهم، ومفعمين بالحب، فإن الميزان سيضطرب فى أيدينا..

لا تسمح لشيءٍ مًا، أن يكدر صفو حبك وولائك لوطنك.. ولقومك.. وخذ القدوة من أصحابها العظماء..

هذا هو "محمد" رسول الله عليه الصلاة والسلام، يضطهده سادة قومه، ويخرجونه من وطنه، فيودعه فى أسى المحب.. ويستقبل مكة قُبيل الرحيل قائلاً:

"والله إنك لأحبُّ البلاد إلى نفسي.. ولولا أن قومك أخرجوني منك، ما خَرجتُ أبدًا" ..

يالروعة الولاء.. لكأنه يعتذر إليها، عن رحيله عنها..

وهذا، هو "المسيح"، يريده إلى الموت، الذين جاء ليحررهم من الأغلال، فيستغفر لهم، ويبتهل إلى ربه قائلاً:

"اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ما يفعلون"..

أرأيتم جلال الحب..؟؟

وستجد صفوفًا طويلة من ذوى العظمة الصادقة أعطوا أوطانهم كل شيء، وربما أصابهم من قومهم أذىً وضُرّ، فما أبغضوا الوطن ولا حقدوا على الأهل؛ ذلك لأن الضر مهما يشتد، عَارِضُ سيزول.. والأذى الذى يُزجيه بُغض الناس لا ينبغى أن يحمل وِزرَه الوطن..!!

والحب الكبير الذى يُعِدّ نفسه ليسبح فى المحيطات الواسعة، يجب أن يتفوق أولاً فى سباحة الأنهار..!!

والقلب الودُود الذى يصافح وُدُّه البشرية بأسرها، لا بُدَّ أن يكون قد استقر ولاؤه لعشيرته الأقربين..

فليكن حبك صادقًا وعَميقًا، وليكن ميزانه مستقيمًا..

كن ابن وطنك، وأخا العالم.. ولا تقل ماذا يجنى العالم من حبى، وأنا فرد وحيد..؟ فكما قلتُ لك أولاً: لستَ وحيدًا.. فهناك فى كل مكان من كوكبنا تتكاثر وتنمو الأعداد الهائلة من رفاقك المحبين.

ومنك، ومنهم، تتكون إرادة الخير المشتركة التى تتحول إلى قدرٍ إنسانى ـ يُريد.. فيكون له ما يُريد..!!

على أن شَحْذَ إحساسك بالإخاء العالمى، وبالصداقة البشرية،

ضرورى لك، لتكون إنسانًا..

والحب للروح، كالهواء للرئة.. كلما تلقت الرئة هواءً نقيًا، قادمًا من المساحات الواسعة الطلقة، ازدادت به حيوية وقوة.

فدَعْ روحك تتنشق حب المساحات الواسعة..!!

ودَعْ وجدانك يمتلئ بالصداقة لكل شىء طيب، لا بين الناس وحدهم.. بل فى كون الله الرحيب..

كان القديس "فرانس" يقول: "أخى الطير" !!

وإنه بهذا لَيُشارف حقيقة الوجود..

فالكون كله صديقنا ـ الأرض.. الشمس.. القمر.. النجوم.. الناس.. النبات.. التلال.. الأنهار.. الزهور..

الكون كله.. العالم كله.. معنا، ولنا..!!

وإن روحك إذا كانت طيبة، لن تشبعَ حُبًّا، فَدَعها تُصافح كل شىء.. فكل شىء لها صديق..!!

دعها تحب كل ما وجد لكى يُحَبَّ ويؤلف..!!

دعها تُعَزِّز صداقاتها، وتنمِّ مودَّاتها !!

* * *

إن الحب يتقدم لينشىء عالمًا جديدًا.. عالمًا من خلقنا، ومن روحنا.. فتَقدمْ معه..

لا تَقُلْ: كيف السبيل، فأنت هو السبيل..

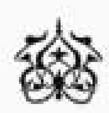
وليس عليك إلا أن تكون مُحبًّا..!!

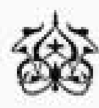
لا تدع الخوف يُفكر لك

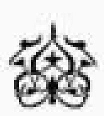
أو يُشِرْ عليك..

وَطهِّرْ منه إرادتك..

وعِشْ قويـاً..









لا أعرف عدوًا للإنسان، خرج عليه من غابات الزمن وملأ حياته بالشقوة والألم مثل الخوف..!!

إنه عدو ضارٍ مُقوِّض، وَبِيلُ..

ولسوف يحدثوننا عن مزايا الخوف، باعتباره المِهماز الذى دفع عجلة التقدم الإنسانى..

فخوف البشرية من المرض، شحذَ اهتمامها بالصحة وخوفها من الجهل، حفزها إلى الاهتمام بالعلم.. وخوفُها الحرب، حشد صفوفها فى جبهة السلام ـ إلى آخر هذه المقابلات..

بيد أن هذه الأمثال لن تخدعنا عن حقيقة الخوف، ولن نكون من السذاجة بحيث نرضى عنه أو نتخذ منه صديقًا..!

فهذا النوع من الخوف ـ خوف الجهل، والمرض، والحرب ليس هو الخوف الذى نُفرِدُ للحديث عنه هذه الصفحات.

فمخاوف الجماعة الإنسانية المتمثلة فى آفات حياتها، وحواجز تقدمها كجماعة، هى بالفعل مخاوف نافعة وحافزة.

فالإحساس بها، إحساس جماعى.. ومقاومتها، مقاومة جماعية.. والجهود الإنسانية كلها فى تعبئةٍ مستمرة لمناهضتها وتلافيها، ومن ثَمَّ

فهى لا تنال من طمأنينتنا، لأن الإجماع الإنسانى على مجاوزتها، يحمل إلينا الإيناس، ويمنحنا حاسة التهكّم عليها..!

أما المخاوف الماحِقة، فهى تلك تنتاب الأفراد، وتنهش أفئدتهم..

تلك التى يحملون وَحْدَهُم لأوَاءَهَا ومَفازِعَها، وتجعل منهم مأساة محزنة.!

صحيح أن فى طبيعتها الإنسانية قدراً من الحاجة إلى الخوف نُحاذر به الأخطار ونتقيها، ونتوخّى به سلامة خطانا وأمن مصيرنا..

بَيدَ أنَّ هذه الحاجة يجب أن تُلبَّى بحكمة، وعلى أضيق نطاق؛ حتى لا تتحول إلى آفة مُهلكة..

إن فى جسومنا مقادير من الدم نحيا بها ونعمل؛ لأن الدم هو الحياة..

فإذا ذهب أحدنا، وأراد أن يمنح جسمه عافية أكثر، فيصبّ فى أوردته دمًا يزيد عن حاجة جسمه؛ فإنه يعرض نفسه للدمار.. وبالدم الذى هو سبب الحياة، يفقد الحياة..!!

فما تحتاجه نفسك من الحذر، يجب ألا يجاوز حده.. وعليك أن تفرق دائمًا بين الحذر النافع الذى تقتضيه غرائزنا السوية، والخوف المقلق الذى تفرزه الأوهام وتعقيدات العيش.

فحرر نفسك من الخوف، وكن قويا..

إن سفير دولة قوية ذات مهابة وقوة، يبدو فى أى بلد غريب يذهب إليه، سيداً مهيبًا؛ لأنه يحمل معه أينما سار، هيبة بلاده وجلالها..

وأنت ـ كائنًا ما تكون ـ تمثل نوعك الإنسانى كله.. ومعك القدْر الذى تريده ـ من قوة هذا النوع وغلبته..

بل أنت بوصفك إنسانًا تمثل "الله" في هذا الكوكب.. وبوصفك فردًا، فإن معك جزءًا من النفوذ الذى يقتضيه هذا الاستخلاف، وهذا التمثيل..!!

ومهما تكن ظروفك ومقدرتك؛ فإن فى مُكْنتك أن تتفوق على كل عوامل الخوف.

فى استطاعتك أن تكون قيصرًا من غير طغيان قيصر.. وأن تكون هِرَقْلاً، من غير غرور هرقل..!!

فى استطاعتك أن تواجه الأمواج مبسوط الذراعين، وأن تبتسم للهول نفسه، فإذا هو هَبَاء..!!

إن طبيعتك مُزوَّدة بقدر كافٍ من الطمأنينة والثقة، فإذا تركته للبوار ـ فإنك بهذا تبدد رصيدًا ثمينًا..

حرِّكْ قوى الثقة والأمن فى نفسك، واستعملها بحُنكة ودأب. تتخلص من مخاوفك أولاً فأولاً..

ولكن، ماذا.. ولماذا نخاف؟؟

سأجاوز بك مرحلة الطفولة، على الرغم من أنها البئر التى تختبئ فيها معظم جذور مخاوفنا.

سنجاوزها، لأن هذا الكتاب ليس بحثًا فى علم النفس.. وسنبدأ من حيث تبدأ مسئوليتنا عن أنفسنا.. حين يبدأ إحساسنا بالمسئولية، ورغبتنا فى أن نباشر حقوق نُضجنا..

إنك شاب يافع، تحمل داخل إهابك نَفْسًا، أنت عنها راضٍ، وبها وَاثِقٌ..

وكثيرًا، ما تتبدَّى لنفسك كما لو كنتَ "دولةٌ ذات سيادة".. لها

رايتها، ولها حدودها، ولها نفوذها واستقلالها..!!

لا بأس أن تكون كذلك.. بل أنت كذلك فعلاً..

ومن هذا التشبيه، بل من هذا الواقع دعنا نبحث القضية..

إنك كدولة ذات سيادة، ترفض العدوان.. ترفض التطفل على أسرارك ومسلكك.. ترفض أى انتقاص من حقوقك وتذود بمنتهى التصميم عن حرمة ضميرك وروحك..!!

وأنت ـ كدولة ذات سيادة ـ لا تعيش فى كوكب وحدك بل تعيش على نفس الكوكب الذى تعيش فوقه دول كثيرة ذات سيادة.. ألفان وخمسمائة مليون دولة، بعدد أفراد البشر الذين سيعتبر كل منهم نفسه دولة ذات سيادة، مثلك تمامًا..!!

والدول، لكنى تزدهر، وتطمئن، يجب أن تكون موفورة القوى، ويجب ـ قبلاً ـ أن تكون على علاقات سليمة وعادلة وطيبة مع الدول الأخرى..

فعلاقاتك بالناس، وبالبيئة، هى مركز الحساسية فى طمأنينتك أو فزعك.. فى سلامتك أو خذلانك..

وعلى الرغم من أن طفولتك تتحكم فيك إلى حدٍّ مَا..

وعلى الرغم من أن ميراثك من آبائك وأجدادك يقودك إلى حدٍّ ما، حتى ليكاد يجعل منك ـ كما قال قائل ـ "عربة كبيرة يركبها جميع أسلافك..!"

على الرغم من هذا كله، فإن مسئولية حياتك مَنُوطة بك وحدك.. ومن ثم، فإن علاقاتك بالناس، مسئوليتك وحدك، وتَبِعتك وحدك..

والآن: اذكر هذا جيداً..

إن أعظم ما يوفر لك الأمن والطمأنينة، أن يربطك بالآخرين علاقات سديدة مستقيمة..

والآخرون هم ـ الناس.. الأسرة.. الشارع.. المعهد.. الأصدقاء.. الغرباء.. المجتمع.. الحكومة.. القانون.. العرف..

كل فُزع يغشانا، يبدأ انطلاقه من هنا ـ من الخلل الذى يصيب علاقاتنا بغيرنا..

وقانون هذه العلاقات يمضى فى دقة عجيبة، تجعل القصاص ضربة لازم..!!

إن القاتل الذى قتل خفيةً، أو السارق الذى سرق خفيةً، يعيشان فى فزع وقلق..

لماذا.. مع أن أحداً من الناس لم يرهما، وبالتالى فإنهما بمنجاة من قصاص القانون والناس..؟!

السبب أن علاقاتهم النفسية بالجماعة، قد اضطربت حين أخَلُّوا بالعلاقات الظاهرة القائمة على العرف والقانون..

واقتراف العدوان ـ سراً كان أم علانية ـ يعنى أن خَطًّا من خطوط الاتصال بالناس وبالمجتمع. قد عُطِّل أو قطع.. ويعنى فى الوقت، أنك فقدت مركزًا من مراكز حراستِك..

ومن الناس من يتمادى فى الإخلال بعلاقاته الاجتماعية والإنسانية، وهو بهذا يتلف جميع الخطوط التى تصله بالناس، وتحمل إليه ثقتهم وحُبّهم وحَدَبَهُم. وفجأة تحتوشه الوحدة والفزع ويقول: إنى خائف..!!

أجل ـ أنت خائف ـ لا لأن الناس يخوفونك. ولا لأن المجتمع يفزعك.. بل لأنك أقصيت عن نفسك كل أسباب الأمن والسكنية، حين

أقصيتها عن الجماعة التى تعيش معها بإتلافك كل وسائل الاتصال بها والتلقى عنها ..!

فاجعل علاقاتك دائمًا فى أحسن تقويم..

اجعلها عادلة، مستقيمة، وقُمْ بكل واجباتها والتزامتها..

لا تنظر أن تعتدى؛ ثم تعيش مطمئنًا..

إن للحياة قدرها الذى لا يغفل عن القصاص، ولا يُحابِى..

واعلم أن كل عدوان تأتيه، فإنما هو هاتف ينادى إليك الخوف والفزع.

ولست أعنى بالعدوان هنا - العدوان المحسوس وحده - بل والعدوان النفسى قبلاً..

فمجرد إضمارك السوء والشر عدوان.. وهو بالتالى إتلاف لعلاقاتك وانحراف بها..

فطهر نفسك من كل انتِواء رَدِئ.. وَطعِّمْ روحك بنوايا الخير، والقصد، والحق. تجد الشجاعة مُثابرة على صحبتك.. والأمن سريع الخطى إليك.. وتجد روح الشجاعة والثقة تَخفُ دائمًا إلى نجدتك..!!

ما أصدق الحكمة التى قالها "كونفشيوس":

"حياتى، هى صلاتى، والذى يعيش عيشة صالحة لا يخاف شيئًا على الإطلاق"..!!

صحيح أن ثَمَّةَ ناسًا كثيرين يسيرون على هذا الصراط ثم لا يسلمون من آفات الحياة..!

أجل.. ولكن آفات الحياة هذه، لن تَقدر أبدًا على إخافتهم وتفزيعهم.. إنها لن تزيد عن كونها مضايقات.. مجرد مضايقات.

أفيسوؤك أن تضع الحياة فى طريقك بعض مضايقاتها ..؟ لقد وضعت هذه المضايقات فى طريق جميع الذين اصطفتهم للقيادة، والعظمة، فلا تَضِقْ بها أبدًا ..

* * *

إذا صححت علاقاتك بما حولك، فالمخاوف كُلُهنّ أمان..!!

وما دُمتَ تحيا بين الناس حياة عادية عادلة، فسيكون فى قلبك من الشجاعة والأمن ما يمنحك غبطة لا يقدر على شرائها مِلْءُ الأرض ذهَبًا..

ولكن، هل سَيُنهى ذلك مخاوفك..؟؟

أجل. سيُنهِى مخاوفك من الناس..

ولكن تبدأ مخاوف أخرى..

الخوف من الغيب..!!

خوفك من المستقبل المحجوب..

خوفك من الله

خوفك من الموت..

وهنا، كما هناك.. لا سبيل للتحرر من هذا الخوف إلا بنفس الوسيلة السالفة.. تصحيح علاقاتك وإضاءتها بنور الفهم والخير..

لقد صار الناس يتسلَّوْن بأصوات الرعد والبرق، وبمنظر الشهُب التى تخترم الفضاء.. بعد كانوا قديمًا يَهْلَعُون منها ويفزعون .. فلماذا ..؟؟

لأنهم بالأمس كانوا يجهلون حقيقتها، وكانت علاقاتهم بها وبالكون كله، تَستمد من هذا الجهل سلوكَها، فيربطونها بغضب الآلهة،

ويرونها سوط عذاب..!

فلما فهموا، وعرفوا، واستقامت علاقاتهم بها على جادَّةِ المعرفة والفهم، ذهب الخوف منها إلى منفاهُ البعيد..

ـ صحح علاقتك بالغيب فإنك لن تفزع منه أبدا..

ـ وصحح علاقتك بالمستقبل. بأن تعمل له فى سداد..

إن المستقبل ليس غريبًا عنك. إنه امتداد لحاضرك.. فإذا وفَّرتَ لعملك اليوم أقصى أسباب السلامة والإجادة؛ فإن عملك غداً ـ وهو ما نسميه المستقبل ـ سيكون سليمًا جيداً..

صحيح أن دُروب الغيب كثيراً ما تَفْجَأ الناس بما لم يكن لهم على بال.

لكن لا ريب فى أن أكثر هذه المفاجآت؛ تجئ ثمرة أعمال لنا سابقة. وأخطاء سالفة..

وقليل من هذه المفاجآت، يكون كأنما صُنع فى غيبة منا، ولكن أى جدوى فى ترقب مثل هذا الغيب، وحملان هموم أمور لم تقع، وقد لا تجئ أبداً.. ؟!

فَدع التوقُّعَ للحوادثِ إنه لِلحَىِّ من قَبلِ المماتِ مماتُ

* * *

وصحح علاقتك بالله. بأن تحاول الاقتراب من فهم الله..

إننا نخاف الله: لأنه توعدَنا بعذابه.. عجبًا!! أولم يَعِدْنا كذلك برحمته التى وسعت كل شئ ..؟؟

إن أباك قد يخوفك. بل قد يقسو عليك لصالحك: فهل لا تعرف من أبيك إلا أنه الرجل الذى يهشُّ عليك بعصاه..؟!

أبدًا .. فعلاقتك بأبيك تقوم أولاً، ودائمًا على أنه أبوك الحانى.. الذى يطعمك ويَكْسُوك.. ويشترى مَسرَّاتِك بالدَّيْن.. وتتلخص مباهج الحياة عنده فى هذه الكلمة: "ابنى" ..!!

فإذا خَوَّفَنا الله، ولوَّح لنا بالعقاب، فليس معناه أنه المنتقم ثم لا شئ

كلا .. إنه الرحمن الرحيم، السلام، الغفور، الودُود..

إنه القُدُّوس الذى لا تحركه الغرائز الغاضبة..

إنه الكمال المطلق

فأقم علاقتك به سبحانه على الحب؛ والرجاء والهدى..!

* * *

وصحح علاقتك بالموت، بأن تدرك حقيقته، وبأن تستعد له بحياة طيبة..

فما الموت إلا انتقالٌ إلى أفضل وأهنأ.. ولكنَّ الأساطير التى أحاطت به، ووضعته داخل إطار من الشوك والأذى، والهول.. هى المسئولة عن تشويهه وتحريف حقيقته..

لا أذكر أين قرأت لحكيم عبارة تقول:

"حين كنتَ جنينًا فى الرحم، كنتَ ناعم البال هادئه.. حتى إذا حانت ساعة رحيلك عنه إلى الدنيا . قاومت الخروج حتى استعانوا عليك بالقابلة "المولدة" .. وأخيرًا نزلت صارخًا ـ مُضمِّنًا صُراخك هذا ، احتجاجك على الذين أخرجوك من جنتك..

"لكن حين كَبِرْتَ، اكتشفتَ جمال الحياة وتعلقتَ بها ..

"وذات يوم آخر، ستُدعَى إلى الرحيل عنها ، وأنتَ تجزع سلفًا من

هذا الرحيل الذى تسميه الموت..

"ألا تتخذ من تجربتك الأولى عِظة ودرسًا..؟!

"ألم تُغادر - من قبل - حياة الرَّحِم إلى حياة أجمل منها..؟

فلماذا لا تكون بما نسميه موتًا، ذاهبًا إلى حياة أكثر جمالاً"..؟!!!

إنها صورة عذبة. وإذا كان فيها خيال، ففيها حقيقة.. فالموت لا يمكن أن يكون شيئًا كريهًا ما دام جميع الناس يعبُرون جِسره، ويَكْرعُون كأسه..!

ليس فى الموت سوى ألم الفراق.. فليأخذ مكانه بين مضايقات الحياة.. ولْتُنَحِّ عن نفسك كل خوف من الموت والرحيل

والآن دعنى أحدثك عن خوف آخر، مُعوِّق، ووَبِيل ذلك هو: الخوف من المسئولية..

وهنا أقدم إليك هذه الحكمة الجليلة!

"افعل ما تتهيَّبُهُ، فإذا موت الخوف مُحَقق"..!!!

أجل: فى نطاق مسئولياتك - صغيرها، وكبيرها.. افعل ما تتهيبه ولا تخف

إن الشجاعة تحمى نفسها من الزلل المحطِّم؛ لأن الشجاعة تنطوى على الحكمة.. وهذا فارق بينها وبين التهوّر، عليك أن تلحظه..

الشجاعة - اقتحام تقوده الحكمة..

أما التهوّر، فصيحة، يدفعها النَّزَق !

باشرْ مسئولياتك بشجاعة.. ومارِسْها فى حدود طاقتك وظروفك، فليس من حقك أن تحمل مسئولية لا تُطيقها، وتعرض نفسك لبلاء لا تطيقه..

ضَعْ عينيك دائمًا على إمكاناتك في غير تهيب، وأيضًا في غير تهور. ووازن بين ما تريد أن تعمل، وما تستطيع أن تعمل..

لا تُلقْ نفسك من حَالِق، رغبةً في أن يقال "يا للبطل" ..!!

ولا تُعامل الحياة كما لو كانت "سِرْكًا" ـ قفزة هنا وقفزة هناك.. بل فَكِّر بذكائك، وقاوِم بذكائك ـ وقاتِل ـ إذا اضطُرِرْتَ للقتال ـ بذكائك..!!!

وأولى سِمَاتِ الذكاء هنا ـ ألا تَستدرجَ إلى مسئولية تقوم بين طاقتك وبينها استحالة لا تملك تذليلها..

كان الرسول عليه السلام يقول: "لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه. قيل: وكيف يذل نفسه يا رسول الله" ؟؟

"قال: أن يُعرِّض نفسه لما لا يُطيق من العمل، فَيعْرِضُ له ما لا يُطيقُ من البلاء" ..!!!

ففي ضوء جميع الظروف، اختر مسئولياتك، وإذا اخترتها، فقم بكل التزاماتها جاعلاً شعارك حكمة ـ فيكتور هيجو : ـ

"إني أرى؛ لا أكثر .. وأومِنَ؛ لا أقلَّ... أما العواقب فشيء لا يدخل في حسابي" ..!!

لا تخف المسئولية أبداً، فذلك الخوف شر أنواع المخاوف، وأكثرها هدمًا لروح التقدم.

وإذا كانت هذه المسئولية تتعلق بنفسك، أم بالناس بأمور عادية، أم بجلائل الأعمال..

أُبذل فيها ـ مهما يكن طرازها ـ كل روحك وجهدك.. فعظَمةُ الروح لا تتجزأ. وهي في الأعمال الضئيلة. مثلها في الأعمال الجليلة،

شامخة بأسلوبها، ويصدقها..

ثَبّت نفسك بالقدوة العظمى التى ضربها للناس خيارهم.. انظر: هـذا "رسول الله" يحتضن مسئوليته فى رُسوخ أشمّ.. ويضع لتهديدات قومه ومناوراتهم حدًا فاصلاً ورادعًا من تصميمه.. ويترك للدنيا أبلغ الدروس فى إيثار الحق، وتحمل المسئولية..

"والله. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، ما تركتُ هذا الأمر حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه.."!!

وهذا، أخوه "المسيح".. يبصر أكثرية قومه، تتحول إلى خِرافٍ ضالة - تحترم الباطل؛ وتمتهن الحق، وتكذب على الله..

ويحمل مسئولية الموقف كله.. وحيثما كان يسير، كانت جثث الهداة قائمة على الصلبان التى أقامها لهم الباطل - تلفحها الشمس والرمال، وتهوى عليها الطيور الجارحة الجائعة. فلا يفتّ فى عضده المشهد، ولا تستجيب فى نفسه ذَرّة واحدة إلى دواعى التقهقر..!!!

ويمضى فى وَلاءٍ فَذٍّ لمسئوليته وعمله..

لا تقل هذا محمد؛ وهذا المسيح..؛ فمن يبلغ شأوهما..؟!

فهناك أعداد هائلة من الذين لم يجْبنوا عن مسئولياتهم ولم يهربوا منها أو يفرّطوا فيها..

هذا "ابن تيمية" يناهض فى أيامه الذين يحكمون الناس بالظلم، والذين يملأون عقول الناس بالخرافة، فيُؤذى ويُضطهد، ويُحاط بكل صنوف الأذى، فلا يلقى مسئولياته من يمينه. بل يتهكم على مضطهديه فيقول:

"ماذا يصنع العداء بى؟ إنَّ حبسى خَلوة، وقتلى شهادة ونَفْيى

سياحة. فماذا يصنع الأعداء بي.. "؟!!

وهذه سيدة، تـرى صرعَـى العلـة يتـهاوون كالعِـهْن.. وتلتمـع أمـام بصيرتها بادرةُ أمل في كشف الدواء الناجع. فتحمل من فورها مسئولية هذه البادرة كما لو كانت رسالة تُلقى إليها، ووحيًا يُنزل عليها، فتثابر، وتضيء، وتعيش وزوجها في "بدروم" منزل ويحيق بتجربتها العلميـة فشل تِلْوَ فَشَل. ولكنها تُثابر، وتَحمـل مسـئولية لـم يكلفـها بـها سـوى ضميرها الحي الباسل، ويَـذْوِي عودهـا تحـت وطـأة الفقـر، والسـهر، والمحاولة.. حتى دقت الساعة التي قال الله فيها لها:

ـ الآن خذي ثوابك بغير حساب ـ وتفتحـت أمامـها مغـاليق السـر، ووضعت يدها على "الراديوم" وأخذت مكانها في الخالدين، ورفضـت في إصرار رُهباني أن تُسخِّر كشفها وجُـهدها لسماسـرة الشـقاء حيـن حاولوا أن تأذن لهم بتحويل الخير الذي كشفته إلى أداة قتـال، تَقتـل وتُبيد..

أتريد أن تعرف أخت البشرية هذه ..؟؟

إنها "مدام كوري"..!!!

* * *

وكان هنا، في وطننا هذا.. رجل معه من المال والجـاه مـا لا يجـد معه من وقته فراغًا ـ أيَّ فراغ ـ يملؤه بعمل جاد. فضـلاً عـن أن يمـلأ بتضحيات تزهو على معظم ما عرف البشر من تضحيات..!!

ألْفَى أُمَّتَهُ تُسَامُ الخَسْفَ والذُّل، فخلع جاهـه، وجعلـه لـها دِثـارًا.. وجمع ماله، وجعله لقضيتها فدية.. وترك القصر، ودخـل السـجن.. ثـم قضى حياته محرومًا من كل راحة.. بعيـدًا مـن كـل مَرفـأ.. حتـى مـات

غريبًا لا يجد ثمن الدواء..!!

أية شجاعة منقطعة النظير، حمل بها "محمد فريد" مسئولياته..

هذا الرجل الذى لا تكاد عظمته تترك إلى جوارها مكانًا لمُنافس أو مُزاحم..

هذه القدوة السامقة جداً.. الطاهرة جداً..!!!

* * *

لا تخشَ شيئًا ما، إذا دعتك مسئولياتك. وناداك واجبك. وسواء كانت هذه المسئوليات، عملاً سياسيًا، أو اجتماعيًا، أو عمليًا.. عملاً فى مستوى القمَّة، أو فى مستوى السَّفح.. وسواء كنتَ وزيراً، أو كاتب "أرشيف" !!

لا تُلق مسئوليتك على الأرض، خوفًا من حق لك قد يضيع أو منفعة ترجوها، أو صداقة تحرص عليها..

لا تخش رؤساءك فى العمل، إذا اقتضت مسئوليتك العادلة أن تقول لهم: لا ..

فليس فى الحياة أمتع ولا أبهج من "لا" هذه. عندما يُدفع بها باطل، وعندما يَتوجَّه بها الأدْنى إلى الأعلى.. والأضعفُ إلى الأقوى..!!!

إن هذه المواقف قبل سواها، هى التى تؤكد عظمة الحياة وقوتها.

حين مات الإمام "محمد عبده" توجّه ناظر الخاصة الخديوية، إلى شيخ الأزهر يومئذ ـ وكان الشيخ "الشربينى" طالبًا منه ألاَّ يشترك هو والعلماء فى جنازة "محمد عبده" الذى كان على خلاف حاد مع الخديوى ..

ألقى مبعوث الخديوى بهذه الرغبة السامية إلى الشيخ فهز الشيخ

رأسه وسكت، واصطبر حتى شرب ضيفه قهوته ثم التفت إلى الشيوخ الذين حوله، وقال: هيا بنا - يا مشايخ فقد حان موعد الجنازة..!! وفهق ناظر الخاصة من مفاجأة لم يكن يتوقعها، وقال لشيخ الأزهر: ألم أبلغك رغبة أفندينا..؟

فانتفض الشيخ العظيم قائمًا، ولوَّحَ بيدٍ عزيزةٍ وقال:

"إن الله وحده هو أفندينا" ..!!

بالله ما أروع هذا، وأمجده ..!!!

اجعل كلمة الشيخ "الشربينى" شِعارًا لك. واذكرها إذا دعتك مسئولياتك الأمينة لمخالفة رئيس لك تحاذِره وتخشاه..

ولا تُتحْ للأوهام أن تظفر من طمأنينتك وشجاعتك بطائل..

إن الوهم أكذب الظنون، فاربأ بعقلك أن يكون له عُشًا ومَأوًى.!!

* * *

وبعد، فهناك قاعدة علمية تقول: ليست الشجاعة "إلغاء الخوف" إنما هى "إخفاء الخوف"..

وإخفاء الخوف هنا، لا يعنى كتم مظاهره، بينما النفس من داخلٍ تُزلزلُ زِلزالها.. وإنما معناه التفوق على كل بواعث الخوف، وتفسيرها التفسير الذى يكشف لنا حقيقتها، ويذهب بالكثير من توهم أخطارها.

ولستَ بحاجة إلى طبيب نفسى، ليزرع فى قلبك الشجاعة، إنما أنت بحاجة إلى الفهم والإرادة.

الفهم الذى يفضح سلطان الخوف الكاذب..

والإرادة التى تضع بَدِيلَ هذا السلطان الزائف، حكمة وقوة وصلابة..

الفهم، والإرادة اللذان يجعلانـك تبتسـم وأنـت تكـافح.. واللـذان يَهِيبان بك أن: ـ "لا تخف.. فإذا غلبـك الخـوف، فـامض فـى طريقـك وأنت خائف"..!!

فتقدَّمْ، وكن شجاعًا..

إن الرجل الشجاع لا يتلفت يَمْنَةً، ولا وَرَاء..!!!

إنه لا يتسوَّلُ العون، ولا يلتمس من غير نفسِه شجاعةَ نفسه..

إنه ـ مركز الدائرة ـ حيث يكون.

وهو بشجاعته لا يربح الحياة لنفسه وحدها بل ويُمكِّن الآخريـن مـن أن يربحوها..

فحيثما يُوجد القَوى الشجاع، يشعر الذين حوله بالقوة والأمن. بـل إن شجاعته لَتشُقّ الطريـق أمـام الأجيـال القادمـة التـى تندفـع وراءه مطمئنة، تقول لنفسها:

هذا الطريق ـ لا ريب ـ مستقيم، لأن رجلاً شجاعًا قد سَارَ فيه..

فتقدَّمْ وكن شجاعًا..

إن الذين قادوا المصير الإنسـانى نحـو مَطالِعِـه، كـانت الشـجاعة، صفتهم المميزة..

الذين قاوموا جمود الحياة؛ وعجزها..

الذين شنوا حملاتهم الظافرة ضد كل تأخر، وانحطاط، وجَهَالة..

الذين هدموا قلاع الطغيان: ورفعوا ـ عاليًا ـ لِواءَ الإنسان..

الذين أنزلوا سفينة التقدم الإنسانى إلـى البحـر وهَذَّبـوا الأمـواج وشَكَمُوا العواصف..

كل أولئك كانت مَيزتهم الكبرى، أنهم تفوقوا على الخوف وعاشـوا

شُجعانًا.

لم يتركوا الخوف يفكر لـهم، ولـم يستشيروه فـى أمورهـم، لأنـهم علموا أن الخوف مستشار أحمق - يُنجِب المَقت والكراهية..

وفى ظل المَقت والكراهية، لا تكون الشجاعة، بل التهور..

ولا تكون القوة، بل القسوة..

والقسوة والتهور يَلِدان بدورهما مخاوف جديدة، وعَجزًا أكيدًا.

لأن الذى يقسو على غيره، يقسو فى نفس الوقت على نفسه، وتُصاب إرادته بـاختلال عميـق، وعَطـبٍ تـام، ويرتـدُّ آخـر الأمـر نَهبًـا لوسَاوِس الهم والخوف..!!

* * *

هناك حكمة تقول: "لأنْ تكون فردًا فى جماعة الأسُوُد خير لك مـن أن تقود النِّعَاج"..!!

وهذا حق، لأنك، وأنت مجرد فرد بيـن أسود، تُواتيـك الطمأنينـة، وإذا كنت جبانًا غمرتك عَدْوَى الشجاعة..

وإذا فاجأتك الأخطار، وجدتَ من الأسـود دُروعًـا قويـة.. فلنذكـر تمامًا، أننا نقهر الخوف، كلما عشنا بين قوم لا يخافون..

من أجل ذلك، فإن الوصية التى تقول لك: لا تَخف.. تقول لـك فـى نفس الوقت: لا تُخِفْ !!

إذ بمقدار ما تُزْجِى للناس من أمن، تتلقى منهم الطمأنينة والأمـن.. فلا تكن قط مصـدر خـوف لغيرك، إذا أردت أن يكـون غـيرك مصـدر طمأنينة لك..!!!

إن التجربـة الإنسـانية تؤكـد أن أكـثر النـاس خوفًـا وجبنًـا، هـم

الجبارون الذين يملأون قلــوب النــاس رُعبًــا .. هــم القســاة الذيــن يسلبون الناس أمنهم..!!

فلا تكن مصدر خوف لجارك.. ولا لزميلك.. ولا لمرءوسك..

لا تُخِفْ أولادك، إذا كنتَ أبًا..

ولا تُخِفْ مرءوسيك، إذا كنتَ رئيسًا..

ولا تُخِفْ شعبك، إذا كنتَ حاكمًا..

إن العدالة تُعاقب باعثي الرعــب، بـأن تـردَّ الرعـب إلـى أفئدتـهم مُضَاعفًا.. وبأن تحرمهم نعمة الحياة بين قوم أقوياء آمنين..!!

فابذل جهدك لكى تزيد من عدد الناعمين بالطمأنينة. واجعل الناس يلتمسون فى جوارك الدفء، وفى قلبك الحنان، وفى أيامك العافية..

لا تُخِفْ، إذا أردت ألاَّ تخاف..

ولا تَخَفْ، إذا أردت أن تحيا..!!

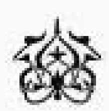
❋ ❋ ❋

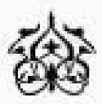
الوصية الثالثة

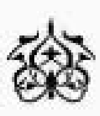
اِسْبح قريبًا من الشاطىء

وارتكب أنظف الأخطاء،

ولا تُقايِضْ على الفضيلة بشىء..!!









عندما قال "سقراط" ! ـ "لا فضيلة بلا معرفة" .. كان يُسلّط أذكى الأضواء على قضية الفضيلة كلها..!!

فأنت، وأنا، والآخرون ـ إنما نهرب من الفضائل بدافع الجهل أكثر مما نهرب بدافع العجز..

وجهلنا هنا، ليس جهلاً بنوع الفضيلة.. بل بقيمتها وحقيقتها.. فأكثرنا يحسب الفضيلة "كَبت الهوى" ..!!

بينما حقيقتها أنها التعبير السديد عن أسمى مَناعِمِ الهوى ومباهجه..!!

أكثرنا يظن أنها تضحية بالسعادة..

بينما هى أوفى وسائل تحقيق السعادة..!!

ونحن ـ غالبًا ـ بحاجة إلى وقت طويل، وإلى مُعاناة أطول؛ لكى نعرف..

وسُعَدَاءُ هؤلاء الذين يأخذون التجربة الإنسانية من قريب، وينتفعون بها، حين تقدم إليهم طبقًا شهيًا. لم يمسّهم لغُوبُ إنضاجه، ولم تلفحهم نار طَهْوِه..

سُعَدَاءُ، لو أنهم يتعظون..

فهل أنت واحد منهم، أو هل تحب أن تكون هذا الواحد..؟

هل تريد أن تنعم بهواك من غير أن تفقد نفسك فى لُجَجِه..؟

هل تريد أن تَكْرعَ من لذات الحياة، وتنال من طيباتها حتى ترتوى وتشبع..؟

هل تريد أن تكون حياتك موكبًا مستمراً من المباهج والمسرات..؟

هل تريد أن تعيش "أبِيقُورِيًّا" فى أبهج، وأرحب، وأعلى مستويات "الأبيقورية" ..؟؟

وبعبارة واحدة:

هل تريد أن تعيش فى لذة لا تنتهى، وغبطة لا تبلىَ..؟؟

أسمعك تقول: نعم.. فأنا لن أجِئَ الحياة مرة أخرى .

ومن ثَمَّ أريد أن آخذها جميعًا : وأحياها ..!!

وأقول لك: حسن هذا .. وإذن فإليك السبيل:

لا تُقَايِضْ على الفضيلة بشىء..!!

* * *

وسيكون من حقك أن تسأل: أية فضيلة هذه التى لا أقايض عليها بشىء..

الفضيلة، كما أراها.. أم كما يراها غيرى..؟؟

الفضيلة، كما يراها الناس اليوم، أم الفضيلة كما كان يراها آبائى الأقدمون..؟؟

وأجيبك: فضائل عصرك..

وتعالى نبدأ الحديث معًا..

إن هذه الصفحات لا تنتظم بحثًا فلسفيًّا عن الوصايا التى تحملها ،

ومن ثم، فلا نريد هنا أن نخوض فى فلسفة الأخلاق.

ولعله لا يكون من الخوض فى فلسفتها، أن أقول لك: هناك: "قِيَمٌ"، وهناك: "فضائل"..

لنقل مثلاً، إن القيمة تشبه الشمس..

والفضائل، تشبه الكواكب التى انقذفت منها، والتى تدور فى فلكها..

وكما أن حياتك "البيولوجية" تقوم صلتها المباشرة، بالأرض لا بالشمس..

كذلك، حياتك الأخلاقية، تقوم صلتها المباشرة، بالفضائل، لا بالقيم..

وكما أن الأرض، الواسطة بينك وبين الشمس بكل منافعها فكذلك الفضائل، هى الواسطة بينك وبين القيم بكل مزاياها.

وكما أن الأرض فى دورانها حول الشمس تُنشىء الليل والنهار، والظلمة والضوء، والصيف والشتاء، والربيع والخريف..

كذلك الفضائل، فى دورانها حول القيم تعطى الحياة أوانا شتى من السلوك..

فكما أن حركة الأرض، تجعل الذى تعيشه الآن - ليلاً عند قوم آخرين.

فإن حركة الفضيلة كذلك - تجعل الخير الذى عندك اليوم، شراً عند آخرين..

فالقيم ثابتة.. أو هى فى حركة حول نفسها، لتحتفظ عن طريق هذه الحركة بثباتها.

والفضائل متحركة، متغيرة، متطورة.

فالحق ـ مثلاً ـ قيمة. ولكن فضائل الأخذ به مختلفة ـ فبينما يرى قوم ـ أن فضيلة الحق فى الميراث أن يكون للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن .. يرى آخرون أن فضيلة الحق فى الميراث أن يستوى الذكر والأنثى.. بينما يرى فريق ثالث، أن فضيلة هذا الحق ـ ألا ترث المرأة أبداً .. إن الحق، كقيمة، واحد لا يتغير..

ولكن طرائق الأخذ به وتطبيقه، وهو ما نسميه فضائل، يتغير بين عصر، وعصر، وناس، وناس..

وأحسبك الآن: قد عرفت ما أعنيه بقولى.. فضائل عصرك.. ذلك أن لكل عصر فضائله وتغيراته..!

وفى الأخلاق بالذات. يطول العصر ـ وينتظم عصوراً وعصوراً. لأن المراحل الأخلاقية تسير فى أناةٍ بعيدة المدَى ..

فحين نقول فضائل العصر، لا نعنى أن لكل خمسين عامًا مثلاً فضائل خاصة.. أو أن ثمت تعبيراً أخلاقيًّا شاملاً وعميمًا يتم كل ثلاثين أو أربعين سنة.. كلا ..

والتزام فضائل العصر، أمر ضرورى لحياتك..

ذلك أن قوام الحياة الإنسانية شيئان، المعرفة؛ والخلقُ والفضيلة، هى التعبير النهائى عن مطالب العصر الخلقية..

فأنت مستقيم، ما دمت تأخذ بفضائل عصرك.. وأنت منحرف بقدر تجنبك هذه الفضائل.

وليس معنى هذا، أن الرواد الذين ينشَقُّون على السائد المألوف. مُبشِّرين بفضائل جديدة أو كاشفين للحياة سُبُلاً جديدة..

أقول: ليس معنى هذا أن يكون هؤلاء أناسًا غير أخلاقيين ومن ثَمَّ فيجب أن يُقْمَعُوا..

كلا.. فالرواد الصادقون جميعًا، رسل المستقبل إلى الناس.. وقد يُنادُون بأنماط من الحياة تبدو لجيلهم وعصرهم غير أخلاقية.. بينما هى فى حقيقتها أنماط أخلاقية جديدة تتخذ مكانها لِتكوِّن سلوك عصور مقبلة جديدة..

إنهم يكونون أكثر من غيرهم فطنة، وأنفذ بصيرة فيتلقون من السلف آخر حلقات تطوره الخُلُقى. ويصلونها بسلسلة الاحتياجات الأخلاقية الحديثة البازغة.

كانت مشاركة الفتاة فى الحياة العامة فى مجتمعنا ـ رذيلة اجتماعية وأخلاقية.. بل كان ارتحالها إلى معاهد العلم ومدارسه كاشفة الوجه مختلطة بالناس فى الطريق ـ رذيلة، وإثمًا..

فما الذى حول هذه الرذيلة إلى فضيلة، أصبح الناس يتسابقون إليها، ويسلمون بناتهم للعلم، وللوظائف، وللحياة فرحين مطمئنين؟

الذى حدث أن المجتمع تطور، وتطورت معه فضائله..

أنت كعضو فى الجماعة، مُلزَم بمسايرة هذا التطور، وملزم أيضًا باحترام الإجماع المحيط به..فحين يُجمع أهل عصر على فضائل هذا العصر.. فعليك أن تحترم إجماعهم لأن هذا الإجماع يدل على أن الناس لا يزالون بحاجة إلى هذه الفضائل بذاتها، ويخبرنا أن موعد أنماط جديدة من السلوك، لم يحن بعد..

فإذا أحسست فى نفسك إرهاصًا بذلك الجديد، فتقدَّم به كتفكير لا كسلوك، كموضوع تَعْرِضه للبحث. وتُدلِى فيه بمنطقك وحجتك..

وفيما وراء هذا، فَليمضِ سلوكك على الأنماط القائمة محترما فضائل عصرك سائرًا على هُداها..

هذه - فى رأى - أثمن وصية تتلقاها فى حياتك..

والآن دعنى أعرف لك الفضيلة تعريفًا آخر..

إن الفضائل هى الصفات النفسية للحياة..

الحياة نفسها، لها دستورها الأخلاقى الذى تسير عليه..

الكون كله له أخلاقياته التى يُلزِم كل وحداته باحترامها..

وأنت تشارك الحياة فى صفاتها النفسية حين تحيا حياة فاضلة.

والإنسان الذى يشارك الحياة فى صفتها النفسية، يحقق لنفسه أقصى مباهج اللذة، والغبطة، والوجود..!!

ستكون لَذَّاته، هى اللذات حقًّا..

وستكون شهواته هى الشهوات النظيفة البناءة الدافعة إلى أعلى..

من أجل هذا قلت لك: إذا أردتَ أن تظفهر بكل نعيم ومتعة، فلا تُقايضْ على الفضيلة بشىء..

صحيح أن الفضيلة كَبْحٌ، ولكنها كَبح للأهواء الفاسدة.

صحيح أنها تضحية باللذائذ.. ولكنها اللذائذ المسممة باللوم والندم..

إذا كنتَ تريد اللذة الزائفة التى تخلف لك الهم، والسقم، والزيغ؛ فأنا معك فى أن الفضيلة لن تحققها لك.. وستحرمك منها.

أما إذا كنتَ تريد اللذة الباقية.. تلك التى لا يَضِيرك أن تعرفها للناس عنك.. والتى تترك فى نفسك بهجة، وفى ضميرك ابتهالاً.. والتى تزيدك اتصالاً بالحياة، واحترامًا لها ولنفسك.. فإن الفضيلة كفيلة

بتحقيق كل هذا لك..

ذات يوم سأل الرسولَ عليه السلام سائلُ عن البر والإثم: فأجابه الرسول:

"البر ما اطمأنت إليه النفس، ورَضِيَ عنه القلبُ.. والإثم ما حاك في صدرك، وخشيت أن يَطلع عليه الناسُ"..

انظر أي معيار حاذق وصادق يرفعه الرسول للسلوك..!!

إنه يربط السعادة بالبر - ويربط الشقوة بالألم..

لأن السعادة قطعًا في طمأنينة النفس؛ وفي شجاعة القلب، وهما ثمرة الحياة الواضحة النظيفة العائشة في النور والطهر..

أما قلق النفس، وضجر الضمير، والحياة التي تطاردها أشباح الخوف، والندم، واللوم.. فتلك هي التعاسة، وذاك هو الشقاء.

فالفضيلة. ليست ألمًا ولا مشقة - بل هي بهجة ورواء، إذا أحْسَنّا فهمها، وإذا لم تتحول بين أيدينا إلى تَزمُّت، وكَبْت، وإرغام..

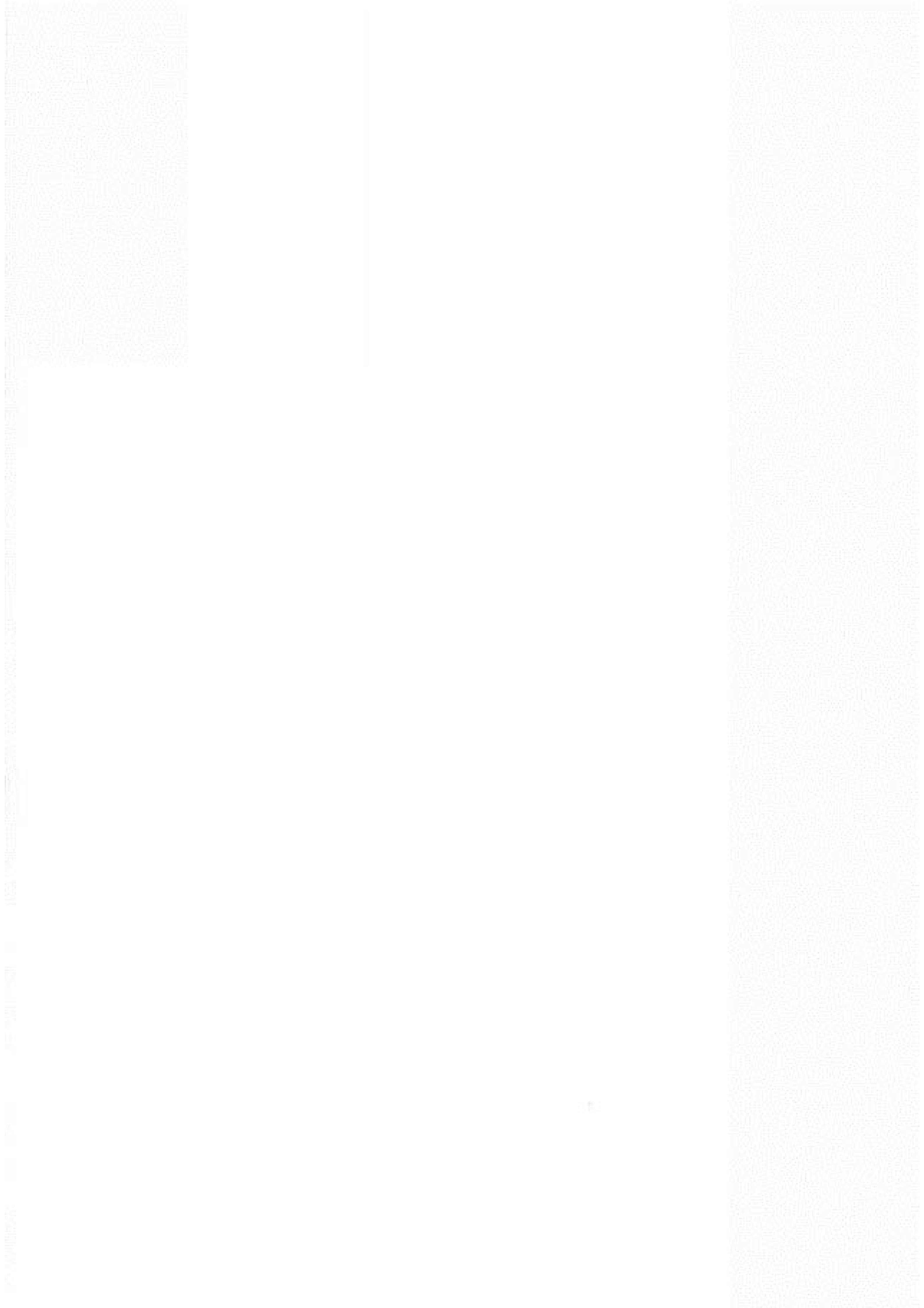
إن كل فرد مِنّا، يجيء الحياة مُزوَّدًا بالقدرة على فعل الخير، وفعل الشر..

والفضيلة، ليست سلعة تُباع في الأسواق - إنما هي حياة تُصاغ، وتُشاد..

إن إدراك الفضيلة، فن عظيم، فتعال نبدأ من البداية لنرى كيف يمكن إدراكها..

هناك وصية موجزة لكنها بليغة - قالتها أم لابنتها: "يابنية: لقد جئت بك إلى الوجود.. وهذا أقصى ما أملكه لك: أما بقية الطريق، وتحويل وجودك إلى حياة، فأمره إليكِ وحدكِ"..





أما الشر فاجتهدْ أن تتركه كله، فليس وراءه خير أبدًا.

ولن يكون حصاده سوى العاصفة.

لا تقترف شرًا، فإن الدَّيان يقظان، وكما تَدِين تُدان..

* * *

أما الخطأ، فلا مهرب لإنسان من الخطأ..

من أجل هذا، لا أقول لك تَجنَّبْ الأخطاء.. لأن هذا يشبه أن أقول لك: تجنب الحياة..

إن الله يخاطب الناس فيقول: "هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، وإذ أنتم أجِنَّةُ فى بطون أمهاتكم، فلا تزكُّوا أنفسكم"..

فأنت يا ابن الأرض، ويا حامل تركة الآباء والأجداد ـ فى طبيعتك الخطأ..

وذلك لا يعنى أن تستسلم للأخطاء.. أو تُوغِلَ فيها بغير حساب.

إذن ماذا عليك أن تفعل..؟

هو ذا : ـ "ارتكِب أنظف الأخطاء"..

اجعل هذه العبارة إحدى بل أهم قواعد سلوكك، تَنْجُ من كثير مما يسوؤك التورط فيه..

إذا كان لا بد من الخطأ، فلتكن أخطاؤك كريمة، نظفية، فإن الأخطاء النظيفة تحمل إمكان التحول والتعلية..

ولا أحسبك بحاجة إلى أن أبين لك: ما هو الخطأ النظيف فالحلال بَيِّن، والحرام بَيِّن

ولكن إذا كان فى ضرب الأمثلة ما يفيدك؛ فدعنى أضرب لك هذا المثال..

لنفترض أنْ قد شَجر بينك وبين آخر خلاف. تطوَّر إلى رفع الصوت.. وحِدّةِ المِراء، فتسابَبْتما، وتشاتَمْتُما..

إن تبادل السباب والشتم. خطأ أخلاقى..

لكن هذا الخطأ،يمكن أن يكون نظيفًا..ويمكن أن يكون غير نظيف..

تستطيع - إذا غُلبتَ على أمرك فى هذا الخطأ - أن تمارسه برفق وترفُّع..

فإذا اخترت للتعبير عن غضبك، كلمات مهذبة، حولْتَ خطأك الذى هو الغضب، إلى خطأ نظيف مترفع..

أما إذا استعملت الكلمات السوقية، وتناولت الآباء والأمهات فقد ارتكبت خطأ هابطًا.. خطأ غير نظيف..

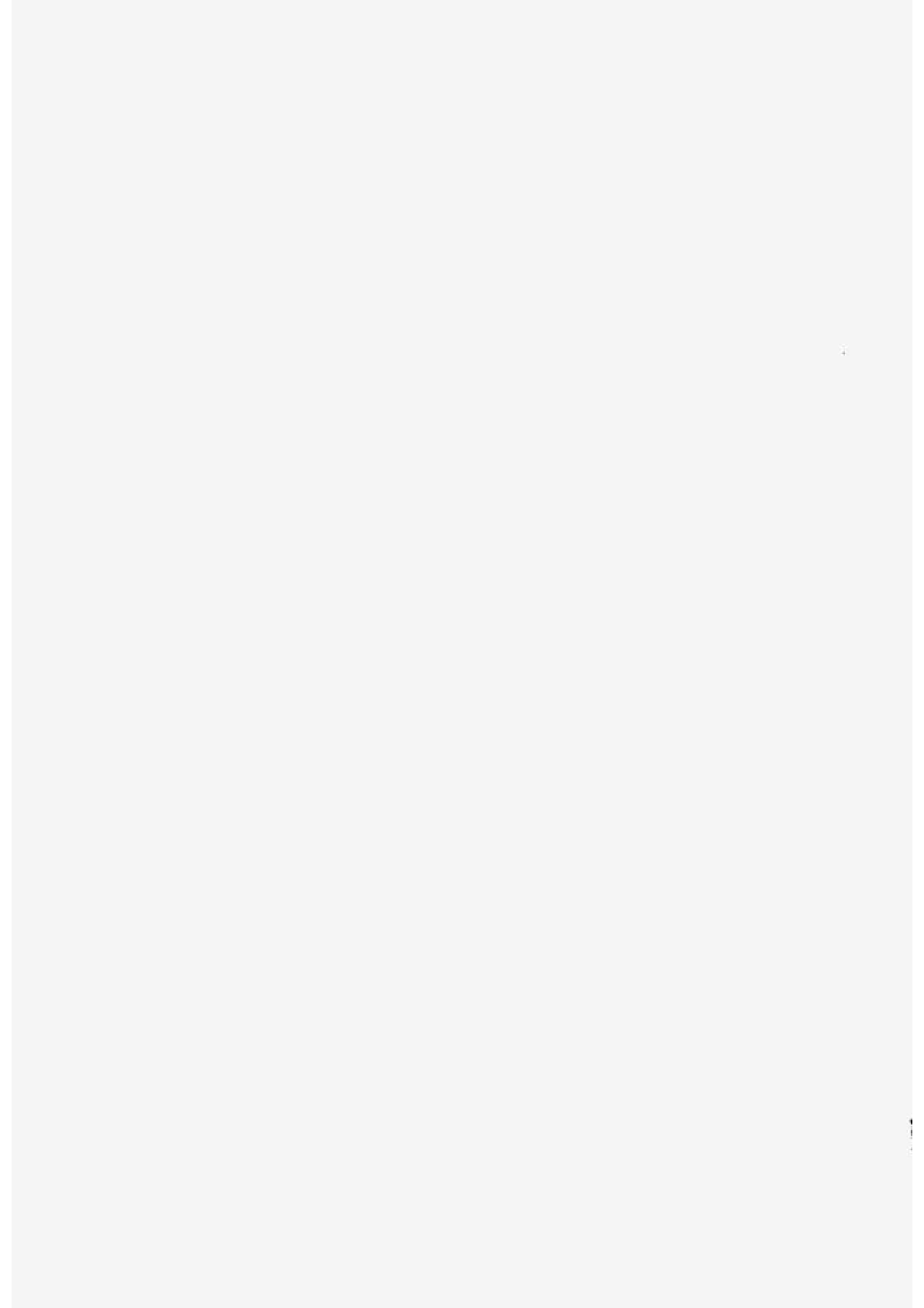
وعلى هذا المثال، نستطيع أن نقيس، وتستطيع أن تتبين طبيعة الخطأ النظيف، سواء فى آداب السلوك، أم فى نشاط الغرائز، والجنس..

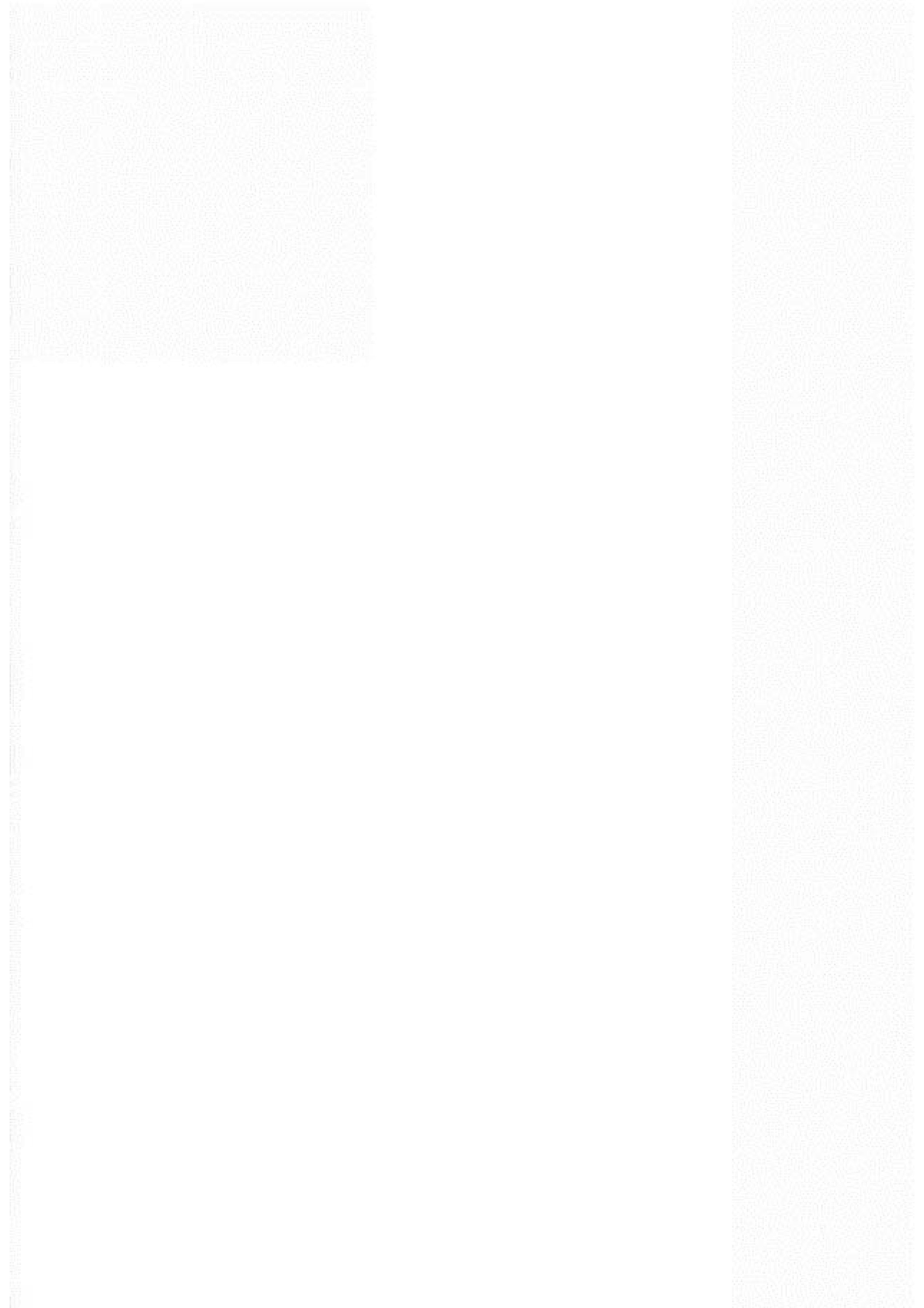
إن العناية باختيار أخطائك، وتهذيب مستواها، آية من آيات النمو النفسى القويم.

لأنه إذا كان كل بنى آدم خَطَّاء، كما قال رسول الله ﷺ .. فإن خيار بنى آدم هم الذين تكون أخطاؤهم كريمة نظيفة.. وهم بالتالى الذين لا يُصِرون على أخطائهم؛ لأن آية الخطأ النظيف، أنه فَصْدٌ عابر.. وليس "نزيفًا" مستمرًا..!!!

مرة أخرى: لا أقول لك: تجنَّب الخطأ.. لأن هذه النصيحة خيالية، بقدر ما هى متهافتة..

إنك لا تقول لمن تخاف عليه وطأة الهواء: احذر التنفس..!





إن هذه القاعدة، تَصدُق أخلاقيًا، بنفس المستوى الذى تصدق فيه علميًا..

فإذا أخذت نفسك إلى الفضيلة بغير هوادة - غافَلَتْكَ ذات يوم، وانقذفت صوب الرذيلة بلا هوادة.. بنفس القوة.. وضد الاتجاه..

فاحذر قمع نفسك..

إن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو صاحب دين من شأنه أن يطالب بمزيد من الفضيلة والتقوى.. كان دائم التذكير بهذه الوَصَاة:

"إن هذا الدين متين، فَأَوْغِلْ فيه برفق، فإن المُنْبَتَّ، لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقَى.." !!!

اِلْعَبْ.. وامْرَحْ.. وتهلّل.. واعلم أن أدنى مستوياتك الخلقية، تتضمن أعلى ما ترجو لنفسك من مستويات..

تمامًا، كما تتضمن البذرة الشجرة.. وكما يكمن فى الطفل الرجل..!!

ولكن، كما يظهر الرجل من الطفل، والشجرة من الثمرة عن طريق التطور، لا الطفرة.. والمحاولة، لا القسْر.. فكذلك مستواك الأعلى، ينبثق من المستوى الأدنى شيئًا فشيئًا.. إذا أنضجته على تجارب هادئة، معتدلة.. لا محاولات حادة رَعْناء..

هناك أناس يتوسلون للفضيلة باضطهاد غرائزهم، وقهر نوازعهم.. وردم كل منابع الطاقة فى طبيعتهم الإنسانية..

هذا خطأ، وزَيْغ..

فنحن حين نريد الظفر بفاكهة أجود مذاقًا، وأبهى عبيرًا.. لا نقتلع شجرتها من الأرض.. إنما نُطعِّمها بالنوع الأجود الذى نريد شَبِيهه،

فتستجيب الشجرة، وتعطى من الثمر ما نريد..!!

عاملْ نفسك هكذا..

لا تحاول أن تقتلع غرائزك، أو تردم منابعها.. فإنك بهذا تعطل حياتك، وتتعجل فناءها الأخلاقى والمادى معًا.

* * *

وشر أعداء تفوقك الأخلاقى، اجترار الندم، وإدمان اللوم.

فلا تُنفق قواك البنَّاءة فى إدمان الندم على ما تورطت فيه من خطأ..

لا تظن أنك إذا زللت. أو حتى واقعت خطأ فادحًا، أنك انتهيت.. فهيهات لمثلك أن ينتهى..

إن فى داخلك من القوى النفسية المذخورة. ما لا يُؤْذِنُ بانتهاء أبدًا. ومعك من القدرة على إصلاح الخطأ، والتفوق على الزلل، ما لا ينبغى معه يأس أو ندامة.

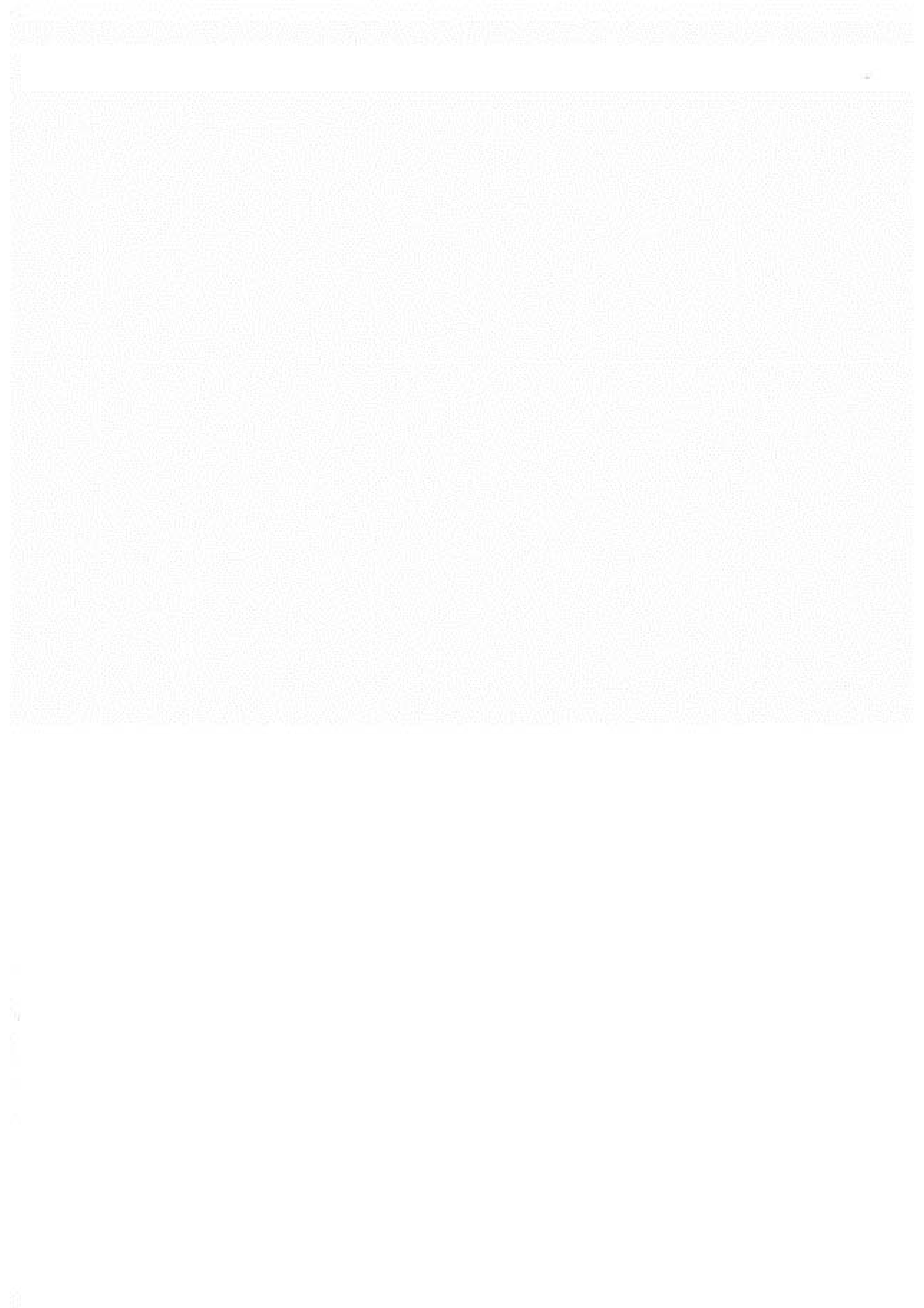
إنك واحد من النوع الذى اتخذه الله خليفة.. النوع الذى جعله الله أستاذ هذا الكوكب، ومهندسه، ومُفَجِّر الحياة فيه..!!

من أجل هذا، أمدَّك بقوى تحطم كل يأس.. وطاقات تجاوز كل عجز..

والقدرة التى يحقق بها نوعك الإنسانى هذه الانتصارات العلمية الباهرة.. معه مثلها أو أكثر منها، ليحقق بها انتصارات أخلاقية أبعد منالاً، وشأوًا..

أنت فرد.. اسمك أحمد، أو علىّ..

ولكن خصائص البشرية كلها ـ يا هذا الفرد.. تحتشد فيك بكل هَيْمَنَتِها وإعجازها..!!





واعلم أن لله عباداً، إذا أرادوا، أراد..!!!

فاحمل إرادتك، وزودها بالذكاء. وحسن التقدير وامض فى طريق الخير والفضيلة.

إنك حين تذهب لشراء ثوب لك أو جَورب، تنتقى أجود الأصناف التى تسمح بها قدرتك الشرائية..

فإذا ذهبت لتشترى لك حياة.. أفلا تختار أعظم وأبهى ما تسمح به قدرتك الإنسانية..

ألا فاعلم أن قدرتك بعيدة الحدود جداً..

واعلم أن الحياة، لا تُشتَرى جاهزة، وإنما تُنسخ، وتُصاغ، وتُبنى، ووسيلة هذا: الإرادة الذكية..

وإرادة الفضيلة تعنى المثابرة على الأعمال الفاضلة..

إن حياتك الخُلُقية، ليست أكثر من مجموعة من المواقف السليمة حوّلتها المثابرة إلى عادة، فأصبحت خُلقًا وسلوكًا..!!

اذكر هذا جيداً..

الأخلاق الكريمة، هى مجموعة من المواقف السليمة، يثابر عليها صاحبها حتى تصير عادة..

فاشحَذْ اهتمامك باختيار هذه المواقف، والْتزمْها..

من أشدها ضآلة.. إلى أنفسها قيمة..

من الطريقة التى تُعامل بها خادمك.. إلى الأسلوب الذى تحترم به وتعامل رئيس دولتك..

من الطريقة التى تشترى بها "قلم رصاص" من بائع متجول إلى الطريقة التى تهيئ بها نفسك لنيل منصب كبير..

موقفك من نفسك فى خلوتك..

موقفك من أسرتك..

موقفك من زملائك فى العمل، وأصدقائك فى الحياة..

موقفك ممن تعرف.. وممن لا تعرف..

موقفك من الذين تحب.. ومن الذين تكره..

موقفك من المحسن إليك.. ومن المسيئ..

طريقتك حين تبتسم، وحين تضحك، وحين تَعْبس..

حين تتحدث، وحين تصمت، وحين تُصغى..

حين تعطى، وحين تأخذ..

حين تمشى، وحين تقعد..

حين ترضى، وحين تغضب..

موقفك من مظالم تقدر على دفعها، ومن ظالم، تقدر على زجره..

موقفك من آلام الناس، ومن آمالهم..

من فضائلهم.. ومن أخطائهم..

موقفك من القضايا العامة، والواجبات العامة..

كل هذه المواقف تشكل حياتك الأخلاقية، بل وحياتك كلها..!!

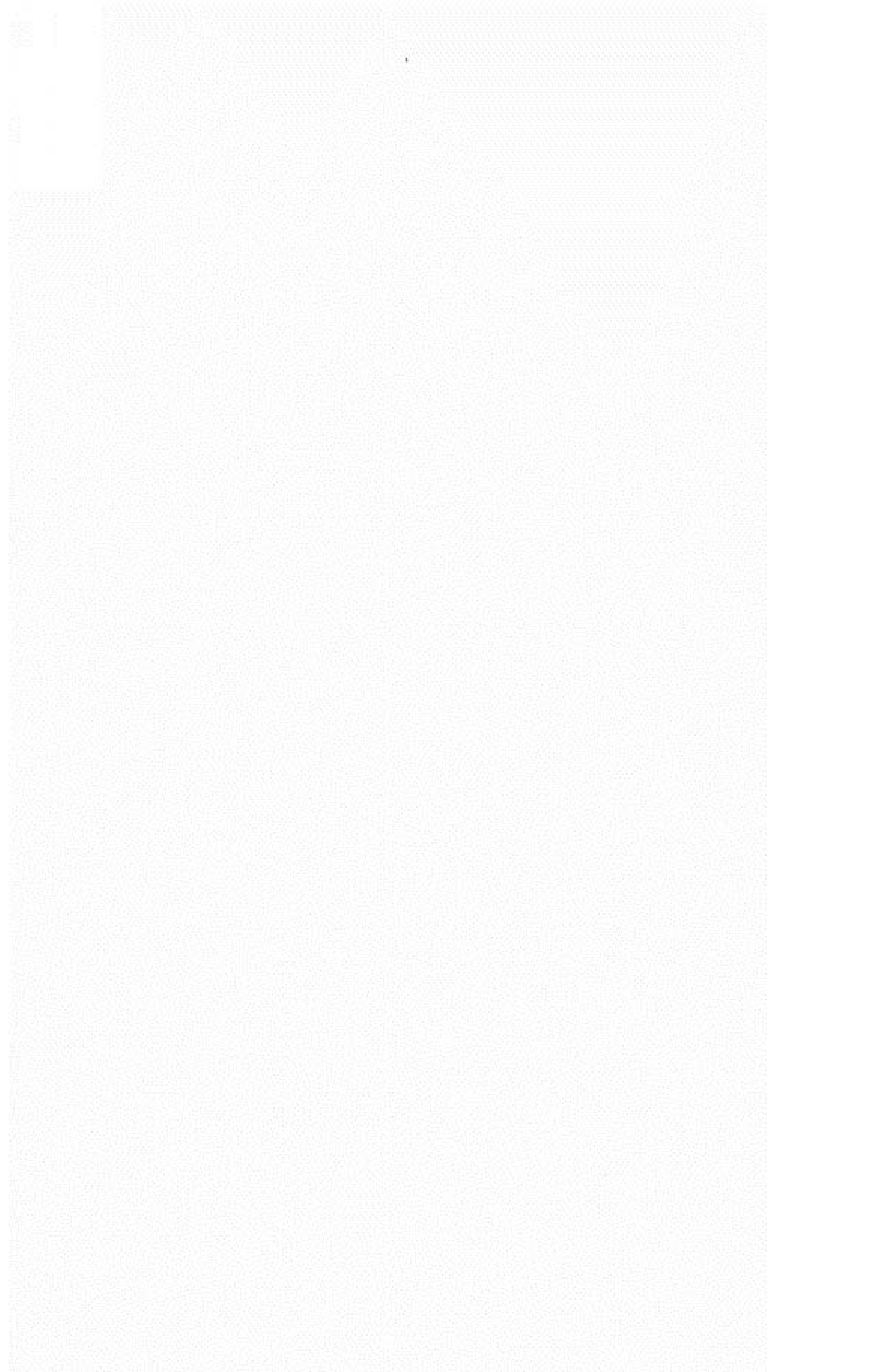
* * *

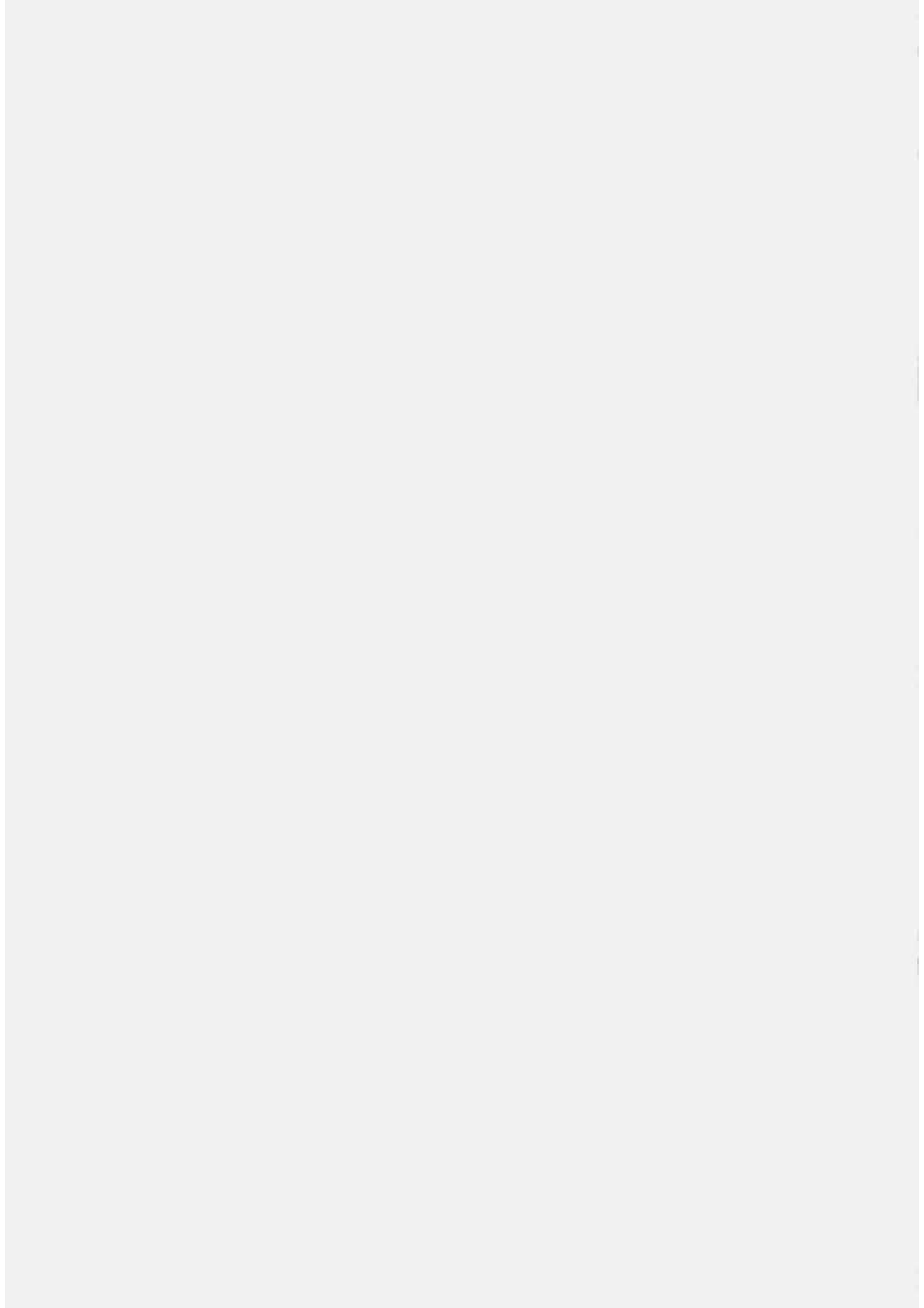
واذكر، وأنت تتخذ هذه المواقف، لتنسج منها فضائلك.

اذكر، وتَوخَّ، واجعل غرض سعيك الأخلاقى، أن تكون فاضلاً.. لا "محترف" فضيلة..!!

هناك فارق بين إنسان "أمين" وإنسان "يتحلّى" بفضيلة الأمانة..

الأول: حقق نموه النفسى كل أغراضه الفاضلة..





الأخطاء الخلقية الهينة التى يفصدها سلوكك الرفيع بين الحين، والحين.

* * *

إن العلامة الصحيحة المميزة للمستوى العالى للفضيلة، لا تتمثل إذن فى العِصْمَة من الزلل..

إنما تتمثل فى مساعدة نفسك، لتصير إنسانًا فاضلاً..

ومساعدة الآخرين ليكونوا فضلاء..

فآية مجاوزتك المستويات العادية للفضيلة..

آية تفوقك، وبلوغك درجة الإنسان الفاضل" هى أن تساعد الآخرين على السير فى ذات الطريق.. هى أن تشارك فى إيجاد الظروف التى تيسر للآخرين أن يكونوا مثلك..

وهذا يقتضيك ألا تسارع إلى إدانتهم..

يقتضيك ألا تَزْهُو عليهم بفضائلك أو تَثنىَ عِطْفَك عنهم لأخطائهم.

يقتضيك، أن تسير معهم وفْق الحكمة القائلة.. "من عرف كثيرًا؛ غَفَر كثيراً"..

يقتضيك أن يكون حديثك عن الناس، وإليهم بلسان دافئ.

لا تشغل نفسك بتعقب أخطائهم، لأنك مشغول بتهيئة الأسباب التى تجعلهم يتقدمون؛ ويتفوقون.

وفى نفس الوقت، لا تخدعهم عن أنفسهم؛ ولا تجاملهم فى أخطائهم، ولا تسكت عما يلحقونه بأنفسهم من سوء..

بل تقول لهم الكلمة الطيبة التى ينتظرونها لِتُقَوِّمَ اعوجاجهم..

تقولها فى حنان، وحرص، وبِرٍّ، حتى تبلغ من أنفسهم مَكْمَن العلة

فتزيلها ومفتاح التفوُق فتديره..

* * *

ولا تطلب على الفضيلة أجرا..

إذا كنت تبنى حياتك بناءً أخلاقيًا فاذكر دائمًا أن الفضيلة غاية لا وسيلة..

واذكر أنك تجاهد فى سبيل امتلاكها، لا لتُقَايِضَ عليها بشىء أثمن منها.. ولا لتكسب بها بين الناس شهرة أو مالاً..

ولكن لتربح حياتك نفسها..

اذكر أنه ليس فى حياة الناس كلها ما يمكن أن يكون ثمنًا للفضيلة، سوى الفضيلة ذاتها..

إننا نُحلى الأشياء بالسكّر.. ولكن بم نحلى "السكّر" نفسه؟؟

لا بشىء.. إن السكر حَلاَوِىٌّ نفسه..!!!

الفضيلة كذلك، مَثُوبة نفسها..

وحَسْبُك جزاء عليها، توفيقك إليها..!!

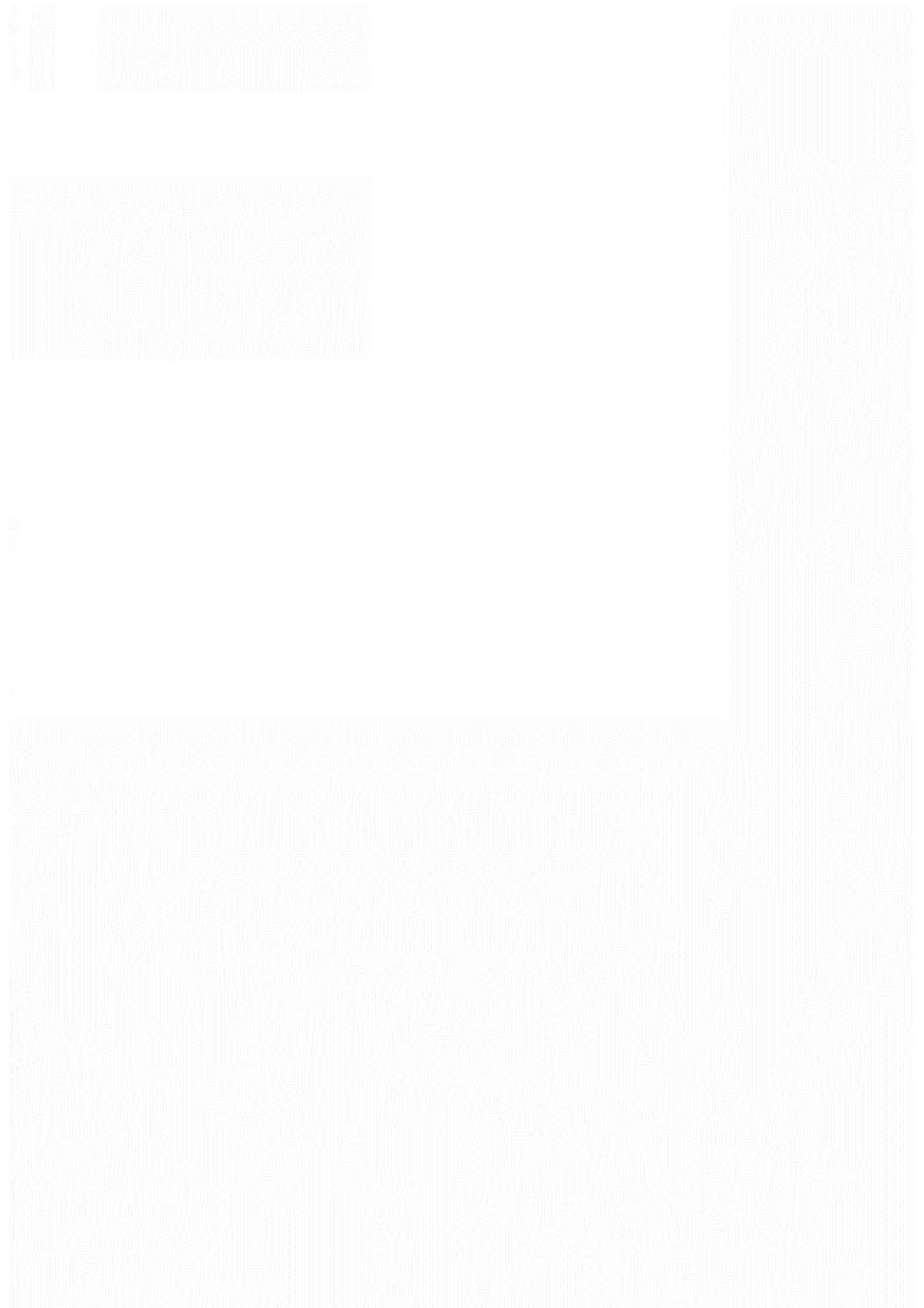
هناك حكمة جزيلة تقول:

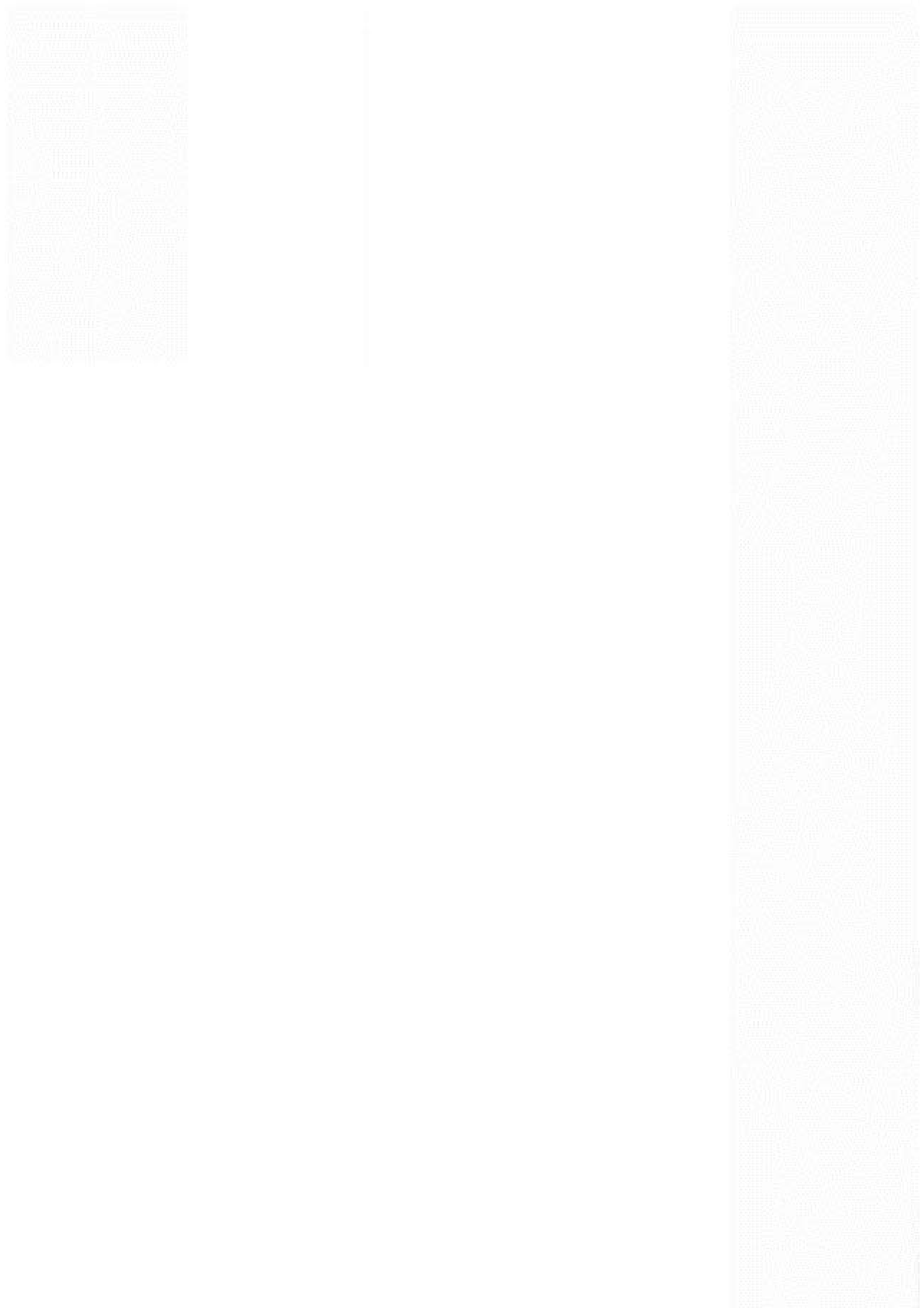
"أكثر الناس جهلاً بالخير، أعلاهم صوتًا فى طلب الأجر عليه"..

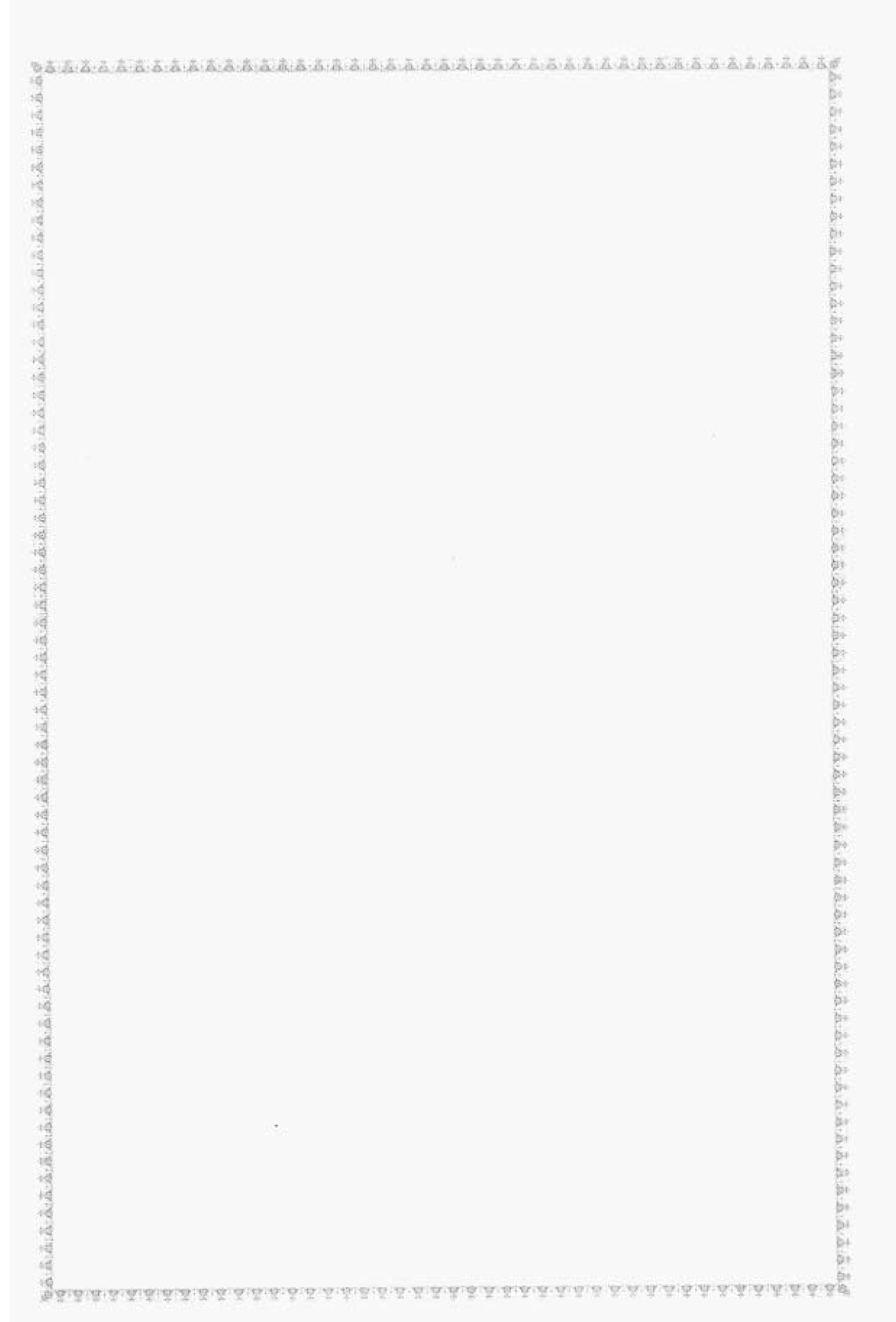
فإذا فعلت الفضيلة، ابتغاء شىء سواها، خَسِرْتَها.. وإذا فعلتها ابتغاء ذاتها ربحتها..

على أن ثواب الفضيلة الذى ترجوه من الناس، مُدْرِكُكَ لا محالة.

وحتى إذا قُسِمَ لك أن تكون فاضلاً بين قوم يجحدون الخير، ويسخرون من كل سمو يُعجزهم نَواله فسيكون هذا الجحود مُنطويًا على أعظم مثوبة..







إذا أخذت بالوصية الأولى، فصرت مُحبًّا ودَودًا..

وعملت بالثانية، فنحيت الخوف، نهضت شجاعًا قويًّا.

وظفرت بالثالثة، فعشت عيشة فاضلة.

فأنت الآن مهيأ لجلائل الأمور، فاستقبلها بعزم.

"إن العظائم كُفؤها العظماء"..!!

وإليك إذن الوصية الرابعة:

ـ أن تحمل رُوح الرواد

ـ وتبحث عن الدروب التى لم تُطرق بعد..

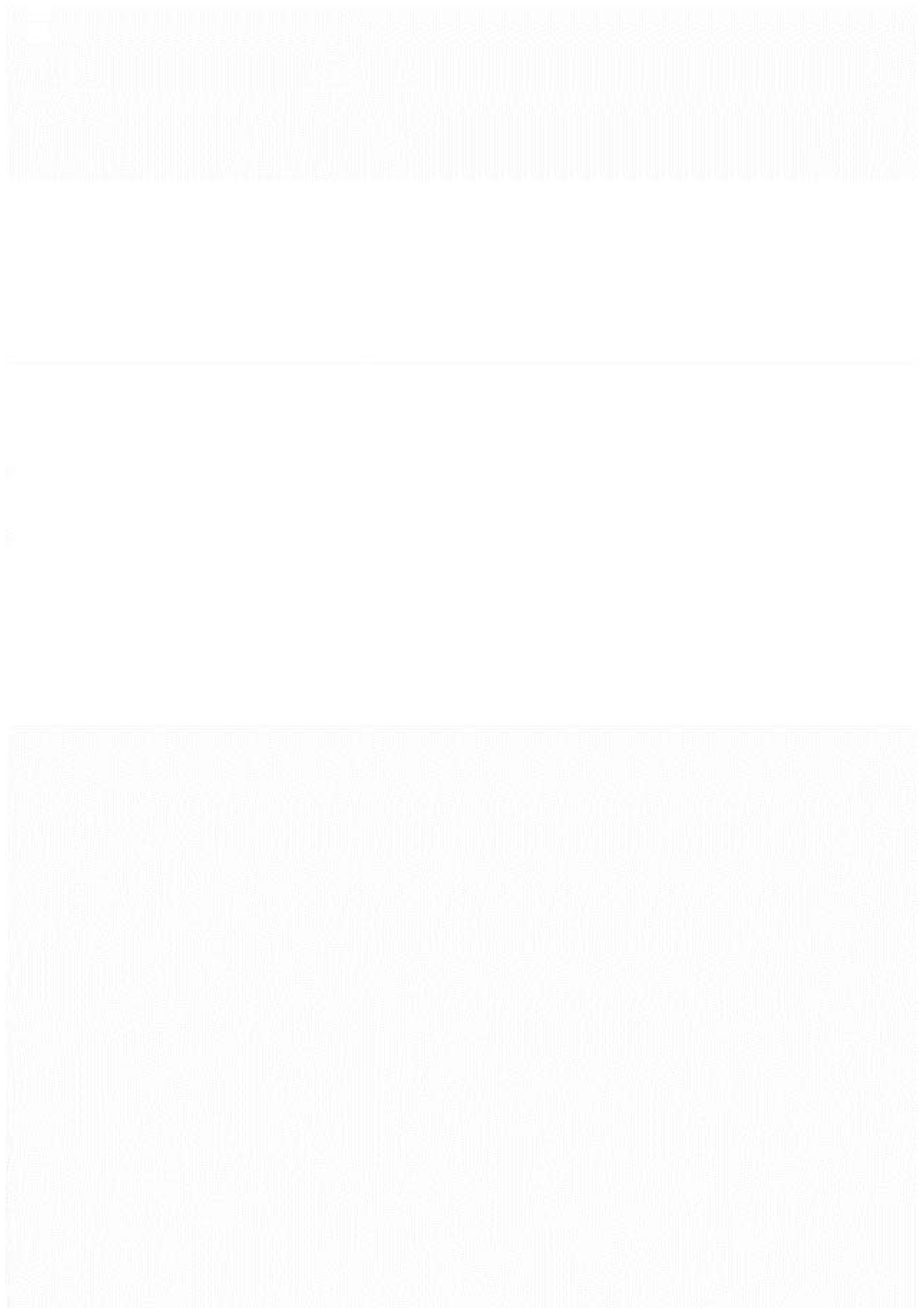
ـ وتُضِيفَ إلى الحياة.. ما لم يفعله من قبلك أحد..!!

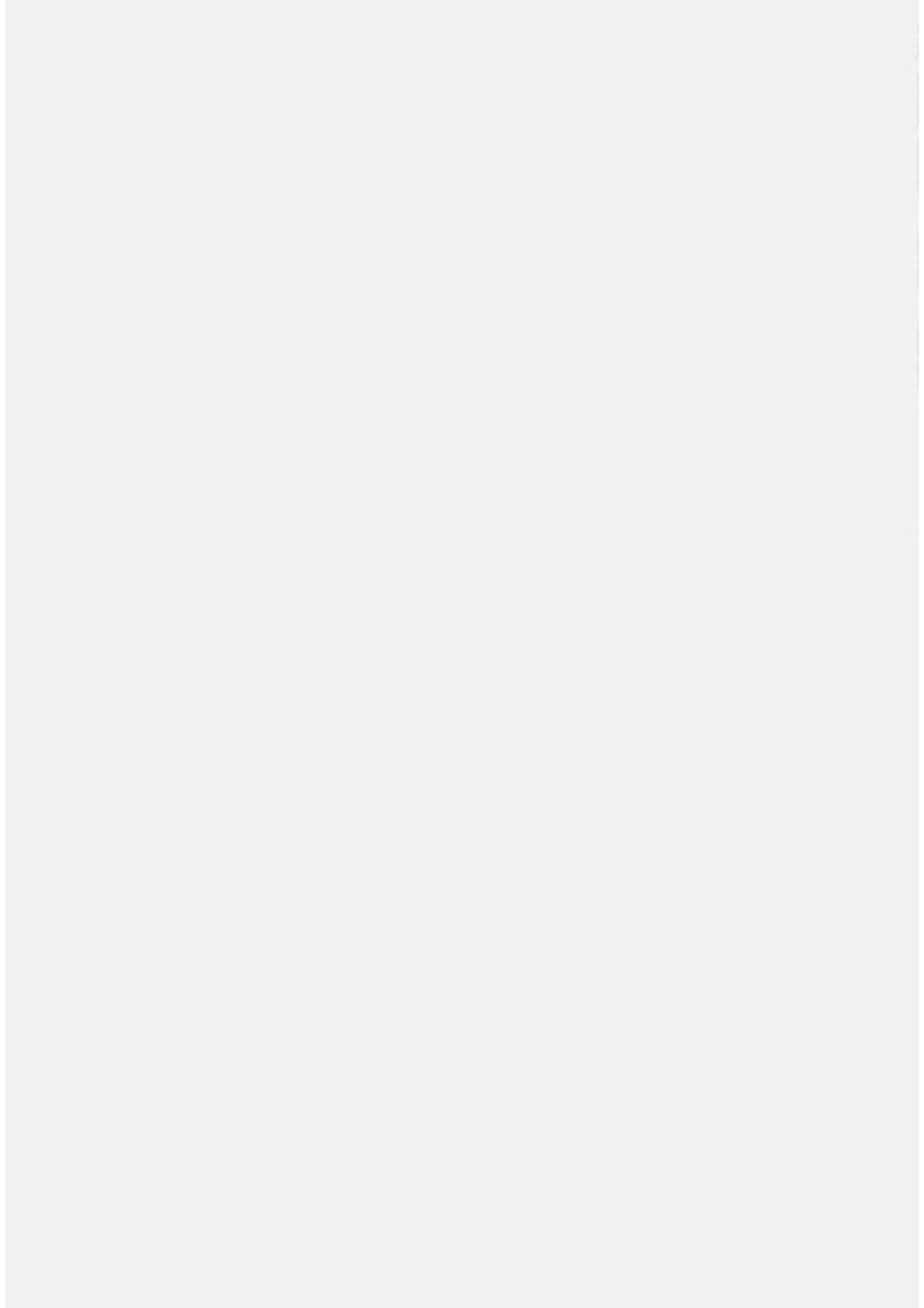
هناك حديث مُضِئ قاله الرسول ﷺ : "إن الله يحب مَعَالِيَ الأمور، ويَكره سَفَاسِفَها"

ومَعَالِى الأمور: غاية كل إنسان ذكى القلب، مستبسل العزم.

وأنت، كما نمت شخصيتك، وربَتْ همتك، واستقامت غايتك، ازداد هُيامك بالعظائم، مهما تكتنفها المشاق، وعانَقَتْ روحَك الجلائلُ، مهما تتطلب من تبعات.

إن رواد المجهول، المولَعِين دومًا بالسير فى الدروب غير





هو عمل كل البشر فى كل العصور..

وحين يصير عملك "علامة ضوئية" تتركها للناس على طريق لم يكونوا يعرفونها، فقد فعلت فعل الرواد العظام.

انظر ..

إن "ماركونى" لم يصنع لنا كل ما ترتب على كشفه الأول من مخترعات.. ومع هذا فسيظل مكانه فى التاريخ، وفى قلوب الناس كما لو كان صانعًا بيديه كل ما حدث وما سيحدث من معجزات هَدَى إليها كشفُه الأول وخواطرُه الأولى..!!

ولكى تمنح عملك الإبداع الجديد الذى تجعله حلقة جديدة فى سلسلة تطورنا ـ عليك أن تتقنه..

إن إتقان العمل ـ أى عمل ـ يعكس كل ما ينطوى عليه صاحبه من خُلُق، واستعداد، ونُضج..!!

وهذا "الإسكاف" الذى يَخِيْط غرزته، وكأنه فى عبادة.. ويدق مسمارًا فى عناية من يصنع طائرة.. تبتهج الحياة به وبعمله ـ أكثر من ابتهاجها بهذا الذى يأتى أعمالاً كِبارًا بيد مرتعشة، وقلب زائغ، واهتمام فاتر.

وإتقان العمل فن عظيم، وهو لا يتمثل فى معرفتك، كيف تعمل فحسب.. بل وفى متى تبدأ؛ ومتى تَكُفُّ..؟

سُئل مَثَّال إغريقى كبير: كيف سبقت معلمك، وتفوقت عليه؟

فأجاب: كان معلمى عظيمًا؛ لا ريب.. بيد أنه لم يكن يعرف متى يجب أن يرفع يده عن التمثال..!!

فاللحظة التى ينبغى فيها أن تبدأ.. واللحظة التى ينبغى فيها أن

تَكُفُّ.. لهما أثر بالغ فى إتقان عملك..

ولكى تتقن عملك ـ لا بد من أن تحبه.

وأنت ستحبه قطعًا، إذا اخترت مادّته ونوعه..

فاختر عملك إذا استطعت لهذا سبيلاً..

اختر ما تعلم أن إمكاناتك تؤهلك له ـ وتعطيك القدرة على التفـوق فيه.

وإذا لم تستطع أن تختار عملك، فأحبه حتمًا..

إن حب العمل ضرورى لإجادته..

وإذا لم تستطيع أن تعمل ما تحب، فلتحب ما تَعْمل..!!

إنك لا تدرى.. لعل هذا العمل الذى فُرض عليك يكون نعمـة كـبرى لك..

ولعل الأبواب المُوصَدة التى حالت بينك وبين عمل كنت تريده وتتمناه.. لعلها أُوصِدَتْ لتسلك سبيلاً أخرى ينتظرك عليها قَدَر عظيـم، وغَدٌ بهيج..!!

أحْبِبْ عملك، لأن عملك هو فى النهاية حياتك..

واعلم أنه ليس فى الدنيا؛ عمل حقير؛ وعمل عظيم إلا بقدر وبطبيعة ما يبذل فى كل منهما من جهود..

وكل عمل صغير تتفوق فيه؛ يتحول من فَوْرِه إلى عمل عظيم..

وكل عمل قديم تبتكر فيه، يتحول بدوره إلى عمل جديد..

إذا كنـت زارعًـا؛ أو صانعًـا؛ أو طالبًـا؛ أو استاذًا؛ أو طبيبًـا أو مهندسًا؛ فاعلم أنك تُمسك بِنَواصى عملك كلـه.. وأن قـدرًا كافيًـا مـن الولاء له والجهد فيه؛ كفيل بأن يخرج لك خَبْئَهُ، ويجلى عَظَمتها !!



وهذا عمل - ليس سوى جمع عشب، وكنس طريق، وتشذيب شجر..!!

ومع هذا؛ فلا النشأة ولا العمل.. على ما فيها من ضآلة ومَسْكَنة.. بقيا في نفس المستوى الذى تسلمهما عنده "كارفر".. بل نفخ فيهما من روحه وصِدقه، فإذا الزنجى الرقيق أستاذٌ من أساتذة البشرية..!!

وإذا جمع العشب، عبقرية تتجلى فى اكتشافات مذهلة، ومخترعات جليلة نافعة..!!

إنه سر واحد..

إنها روح الرواد.. حملها الفتى، وبث منها فى عمله فكان كل هذا الإعجاز..!!

كان "كارفر" يتغنى دائمًا بهذه الحكمة:

- "إن الأفذاذ الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مُصَوِّر...

"الذين تتلهف فيهم الأرواح على أداء الأفعال الجسام.. هم الذين ينيرون السبيل أمام الأكثرين" !!!

* * *

الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مصور..؟؟

إن "كارفر" يضع أيدينا على سر العظمة..

السير بلا خريطة.. نبذ التقليد والتبعية: السعى فى العمل وراء الجديد الذى لم يكتشفه من قبل أحد.. فلِكَى تحمل روح الرواد؛ ابتكر، ولا تقلد..

حرك عقلك فى جميع اتجاهاته الواسعة، ولا تُولَعْ بالسير وراء الآخرين.

انتفع بتجاربهم.. ثم احمل تجربتك أنت؛ وشُقَّ لنفسك طريقًا..

إن طرق الله في الحياة لا حصر لها، ولا مُنتهى.. ولقد خُلِقنا كثيرين. ولم نُخلق فردًا واحدًا.. وأعطِينا عقولاً كثيرة؛ ومَشيئاتٍ كثيرة.. لا عقلاً واحدًا، ولا مشيئة واحدة.

وذلك؛ ليكشف كل منا الجزء المنوط به من مجهول الحياة، والعمل.

والذى يكتفى بتقليد غيره، إنسان انسحب من الحياة؛ وألغى دوره العظيم..

وأنت حين تسير في الشوارع المُعبّدة الممهدة، لا تأتى أمرًا مذكورًا..

أما حين تبحث عن درب غير مطروق.. وتكشفه، وتنادى الناس إليه، وتصله بطرائق الحياة الكبرى الواسعة فأنت إذن الرائد الذى يبتهج بك قلب الحياة..

فمهما يكن عملك، لا تقف فيه حيث وقف غيرك.. بل ابدأ من حيث انتهى سلفك..

لا تبذل فيه جُهد الهَمَل، بل ابذل جهد الرواد..

كن أحد الذين ينيرون السبيل أمام الأكثرين.

لو اكتفى "جورج وشنطن كارفر" من الفول السوادنى، ومن البطاطا بأكملها، كما أفعل أنا؛ وأنت. أو حتى لو اكتفى بمجرد الدراسة، ومجرد الحصول على الإجازات العلمية، لظل دوره عاديًا.

لكنه صمم على أن يحقق وجوده، ويضيف للحياة جديدًا. صمَّمَ على أن يسير سير رائد - لا سيرة تابع..





ولكنهم جميعًا سواء في روح الكامن داخلهم..

وسَواء في العزيمة القادرة على بلوغ ما يريدون..

هناك - لا غير - ناس يستعملونها.. وناس يهملونها، ويتركونها للصدأ والبوار..

انظر..

إن أكثر الذين فجَّروا طاقات الحياة؛ ودفعوا قافلة التقدم - كانوا إما فقراء؛ أو مرضى؛ أو ذوى تعاسة في حياتهم. فبأى قوة خَلَقوا؛ وحَلَّقوا..؟؟

إنه؛ هذا الذى لم يحرم الله منه أحداً.. إنه الحافز الروحى الفذ؛ الذى تتألق مظاهره، وإن خَفِيَ - إلى حد كبير - كُنْهُه..

إنه هو الذى جعل من "محمد" اليتيم، أبًا للبشرية كلها..

ومن "المسيح" المضطهد، بهجة العالم وسلامه..

ونقل "عمر بن الخطاب" مِن فتىً يرعى شُوَيْهَاتِ خالاتِه نظير حَفنة من التمر - إلى أمير للمؤمنين، يرفع لواء العدل والتوحيد فوق أنقاض كسرى وقيصر..!!

وجعل من "إبراهام لنكولن" الصبى الحطَّاب، رائداً من رواد الإنسانية الحديثة، والتاريخ الحديث..!!

وصنع من "كارفر" ما سمعت..

ويصنع من كل إنسان مثل ذلك، إذا فتح بصيرته على مركز القُوى، وحرك بيدٍ قوية مفتاحَه..

إنه - كما قيل - من قبل: "لا مستحيل على القلب الشجاع"..

والعزيمة تتطلب مثابرة لا تكلّ، وصبراً لا يملّ..

والذين يملكون أزِمَّة الصبر والمثابرة يتهيأون لكل عمل عظيم.

عندما كانت تضيق حلقة الاضطهاد حول رسل الله، كان الأمر الذى يُنَزَّل عليهم:

- "اصبروا" ..

- "لا تيأسوا من رَوح الله" ..

فاصبر على أداء واجبك، وثابر على تجويد عملك، ولا تيأس أبدًا..

اجعل شعارك "غدًا تغرد العصافير" ..

فإذا غلبك اليأس، فقل: "بعد غد، تغرد العصافير" ..!!

احفظ عليك هدوءك، وإصرارك، ولا تيأس..

إذا اقتلعَتْ الريح خيمتك، فاعلم أن القــدر يدعـوك لتبنـى مكانـها قصراً..

وإذا انفجرتْ البراكين حولك فقــل: إن القــدر يحـرث لـى الأرض، لملأها غِراسًا وبِذرًا..!!

"إن يد الله تخفُّ بالنجدة لكل مثابر، دءوب"

هكذا قال الحكيم؛ وإنه لصادق..

* * *

لا تَحْقِرْ عملك أيا كان نوعه..

ولا تستهن بواجبك..

واعلم أنه خير لك أن تكون "الأول" فى عمل صغـير، مـن أن تكـون "الأخير" فى عمل كبير..

والأولوية التى تريدها طبعًا هى أولوية التفـوق الحقيقـى المسـتمد من خُلقك ومثابرتك وذكائك..

على أن الأمر ـ كما ذكرنا من قبل ـ أنَّه ليس هناك عمل صغير أبدًا، إذا كان الجهد المبذول فيه كبيرًا، ونبيلاً.

دعني أقص عليك هذا المثل الطريف..

كان في حى "الحسين" بالقاهرة؛ رجل عظيم الحِذْق فى صنع "الطعمية"..

رجل، لا بد أنه نشا كما ينشا أترابه.. صبيًّا يشتغل بهذه الحرفة لكنه ليس ككل صبى.. بل مفتوح العين، مُرهَف الحس، متفانيًا فى معرفة عمله وإتقانه..

وكَبِرَ، وصار صاحب عمله، وسيد حرفته..

كان الناس يقصدونه من كل مكان..

كان الوزراء، والكبراء.. يسعون إلى حانوته الصغير، أو يرسلون من يحمل إليهم من عنده ما يشتهون..!!

أليس طهو الطعمية، وبيعها، من الحرف الدنيا فى بلادنا..؟

ومع هذا، فقد جعل هذا الرجل من نفسه مَلِكًا مُتوجًا اسمه "ملك الطعمية"..

أجل، هكذا كان لقبه بين الناس..

فبأى حق، أخذ المُلْك، ولَبِس التاج..؟؟

إنه حق التفوق..

كان "الأول" فى عمله، على الرغم من مستوى هذا العمل..

فصار واحدًا من "الأوائل" في قومه ومجتمعه..!!

فاجعل همك أن تكون "الأول" فى عملك.. تسارع إليك كل فرص الخير، والفوز، والتوفيق..

وهى كما قلت لك "أولَوية" جدارةٍ وبذلٍ.. لا أولوية، ادعاء، واستعلاء..

* * *

وإذا أردت أن تكون رائداً، فتخلَّق بأخلاق الرواد واعلم أن الرِّيادة بطولة..

والبطولة الحقة، لا تُعْنى بالشهرة ولا بالمجد، وإنما تعنى بالعظمة..

افتح بصيرتك جيداً على هذه الكلمات التى أكتبها لك بحروف كِبار:

"**دع المجد والشهرة للحمقى، واذهب أنت بالعظمة**"

والعظمة: شيء مختلف عن المجد، بعيد من الشهرة ..

العظمة: عمل من أجل العمل..

أما المجد: فعمل من أجل الزَّهْو، كما أن الشهرة عمل من أجل الغرور..

العظمة: خُلوص الشخصية من آفاتها، وخلوص العمل من بواعث النفعية والوصولية..

العظمة رِفْعَةٌ، تحقق نفسها بالترفُّع..

والشهرة، كثيراً ما تحقق نفسها بالتهالُك..!!

والإنسان العظيم، يسعى إليه المجد، وتخدمه الشهرة.

أما طالب الشهرة والمجد، فإنه يتحول إلى خادم ذليل لهما، وإلى تراب تحت أقدامهما ..!!

"العظيم" لا يتهافت على الشهرة، بل يهرب منها، لأن فى ضوضائها خطراً على سكينة نفسه، وتَبتُّل روحه، وسيادة عقله..

و "العظيم" واحة يتلمس الأحياء عندها راحتهم، وقوة تحقق بها الحياة كيانها..

و "العظيم" بسيط فى مظهره واثق بنفسه.

هو يعلم أن لديه كثيرا مما يريده العالم. ويحتاجه الناس..

وهو يقدم هذا الذى عنده فى غير من، وفى غير صلف..

هو:

يعطى، ولا يسأل ..

يمنح، ولا يأخذ..

يقبل، ولا يدبر..

يواجه، ولا يهرب..

يتفانى، ولا يتردد..

إنه يخدم الناس، لا طمعا فى مال، ولا فى ثناء.

وهو يؤدى دوره فى استبسال وغبطة، فإذا جاء النصر، وخفقت راياته ـ انسحب فى هدوء، باحثا عن واجب آخر يؤديه، وبطولة أخرى يحققها !!

لا يقف لحظة، ليقول للناس: انظرونى..!!

ولا يطالب لنفسه بامتيازات خاصة لقاء ما أدى. وجزاء ما فعل. وهو مهما تعل مكانته، لا يفتأ يعيش.. "واحد" بين الجميع. ويرفض أن يعيش "سيدا" فوق الجميع..!!

ذلك أن ثراء مواهبه وروحه. يمنحه دائما شبعا وريا، فلا يعود يرى فى الأمجاد التى يتهافت عليها الصغار سوى فتات لا تقع عليه عين مشغولة بالمناعم، ولا تتشهاه نفس شبعانة بالطيبات..!!

والساعى إلى "العظمة" كبير ـ دائما ـ حتى إذا زلت قدمه وغلبته العثرات..

أما الساعى إلى الشهرة فصغير ـ غالبا ـ ولو كان فوق رأسه تاج..!!

الإنسان العظيم كالمحيط.. هادئ قوى..!!

وكضوء الفجر.. مبشر وندى !!

وكروح الربيع.. مبهج وثرى !!

ألست أدعوك للخير إذن حين أقول لك: "دع المجد والشهرة للحمقى، واذهب أنت بالعظمة..؟؟"

أجل: فاجعل مناط سعيك فى الحياة..

أن تكون رائدا..

أن تكون نافعا..

أن تكون عظيما..

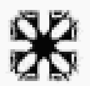
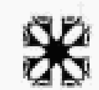
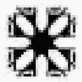
* * *

إنك إذا تتبعت سير الرواد الكبار الذين غيروا وجه الزمن، وأحسنوا صوغ المصير لوجدتهم بلا استثناء أصحاب عظمة، لا طالبى مجد، ولا متسولى شهرة..

ستجد كثيرين منهم إن لم يكونوا جميعا، قد نأوا عن الأضواء والراحة. ورضوا العمل الصامت. وآثروه على الضجة الفارغة..

وعلى الرغم من أنهم قضوا حياتهم؟ عائشين فوق اليم، بعيدين من المرافئ، مواجهين المخاطر.. فقد زهدوا فى الحرص على الإطراء، ولم يسمحوا لتصفيق الإعجاب أن يفسد عليهم تأملاتهم، أو ينال من تواضعهم، وتنازلوا عن حقهم فى كل جزاء وشكور..

ذلك لأنهم أحبوا العظمة الصادقة وعشقوها، وعرفوا ما تنطوي عليه من مثوبة تتضاءل دونها كل المثوبات، فحموا تبعتها؛ وآثروا صحبتها..!!

لا تعش وعلى عينيك عِصَابة ..

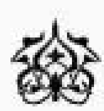
وامْض بَصيراً

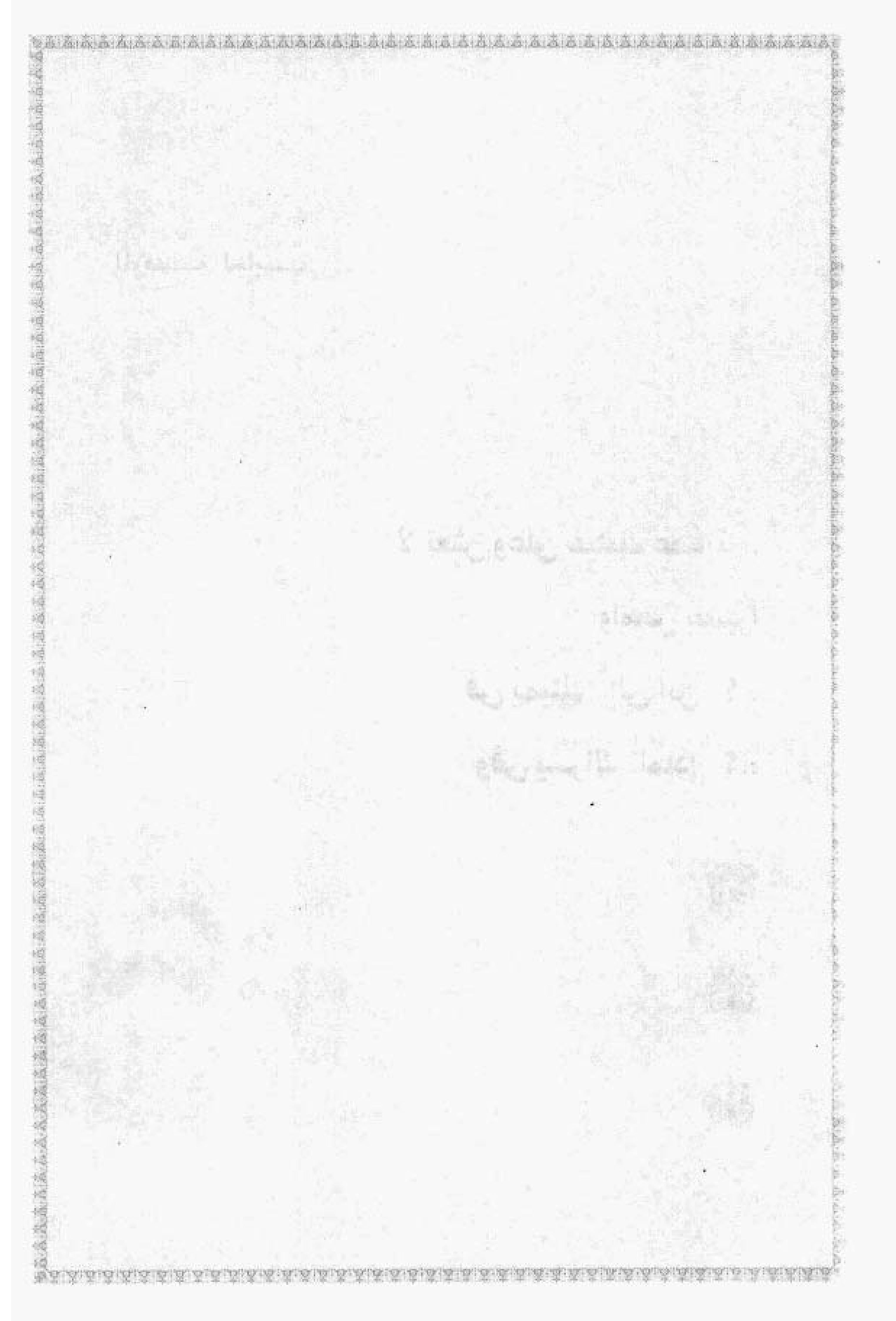
فى يَمينك "إلى أين" ؟..

وفى يُسْراكَ "لِمَاذا" ؟..









أنت فى الحياة حدَث جديد، وطاقة جديدة..

ويوم وُجدتَ، امتلأ فى الحياة فراغ كان ينتظرك، ولا يملؤه بعد وجودك أحد سواك..

وهذا يحدد واجبك تجاه الحق الذى للحياة عندك حين صرت واحدًا من أبنائها وجنودها..

وقوانين الحياة بل قوانين الكون، تقوم أول ما تقوم على الترابُط..

إذا انزلقت الأرض عن مدارها حول الشمس جزءًا من الثانية، بادتْ فى جزء من الثانية..!!

إذا تلوث هواء بغبار ذرى كثيف، هلك الذين ينشقونه من الأحياء..

الكون كله، عائلة واحدة..

والحياة الإنسانية، قلب واحد..

ونحن ـ فى الدنيا ـ رَكْبُ سفينة تَمخُر العُباب، ويستطيع أحدنا أن يغرقها بما فيها، إذا سمح له الآخرون أن يثقبها بمسمار..!!

إنك ـ قطعًا ـ لا تود أن تكون ذلك الواحد..

وتستنكر بشدة أن يُساءَ بك الظن، ويدور فى خلَدِ أحد أنك هو..

ولكنى أقول لك: إنك تثقب السفينة كل يوم؛ وكل ساعة؛ إذا

أغمضتَ عما يجرى حولك عينيك، جاعلاً شعار حياتك العاجزة "وأنا ما لى" ..!!

* * *

إن الحياة ترفض الإمَّعية..

ولو كان عيش بعض الناس كَلاً على البعض الآخر مما تقبله الحياة.

إذن لاختصرتْ نفسها، وتخففتْ من أعباء الكَمّ فيها..

هناك بيت من الشعر يقول:

قد هَيَّأوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل.

هذا ليس خيالاً، بل حقيقة..

وهذه الحكمة مُوجَّهة لك..

فأنت شىء كبير هائل..

إن القُوى التى تعمل فى الشمس، وتجعل منها شمسًا..

وتعمل فى الذرة، وتجعل منها هولاً.. هى نفسها التى تعمل فيك وتجعل منك أنت..!!!

والحياة الإنسانية، تتمثل فيك، كما لو كنت الجنس البشرى كله.. من أجل هذا، كانت مسئوليتك أبعد آمادًا من حدود نفسك وتُخوم ذاتك..

ومنذ أضاءت الحياة فيك، وصرتَ واحداً من شموعها الكثيرة، وأنت بالنسبة إليها حدث هام بالغ الأهمية..

وإذا كُنتَ "حوذيا" فمسئوليتك عن الحياة، لا تقل عن مسئولية "الملك" لأن حفاوة الحياة بالحوذى وبالملك سواء..

أليس لك مثل ما له عينان.. ولسان وشفتان، وإرادة، وعمل..؟

إذن، فلك دور فى الحياة ينتظرك.. ومسئوليتك عن هذا الدور تتساوى فى التحليل النهائى لها، مع مسئولية الملك عن دوره..!!

ذلك أن الحياة لا تنمو بالأعمال الجهيرة وحدها. بل هى تستمد نماءها من كل عمل.. بل إن الأعمال الكبيرة نفسها، ليست إلا المجموع الكلىّ لأعمال صغيرة..

فلا تَخَالَنَّ نفسك تحيا على الهامش، فليس للحياة هوامش..

فافتح عينيك، ولا تعش وعليهما عصابة..

ولكى تكون قادراً على أداء دورك الحىّ، كن بصيراً بزمانك..

إن الحياة اليوم خِضَمٌ كبير يتفجر بالحيلة وبالذكاء..

فَواجِه الخصم بعينين مفتوحتين، ومسئولية مبصرة.

لقد انتهت عصور الإذعان، والتلقى، ولم يعد ناس اليوم صالحين للسير صُمًّا وعُميانًا..؟

والذى يسير أعمى وسط الزحام، ستدوسه الأقدام وتطحنه العجلات..

ضع قدميك على الصخر.. إذا أردت ألا تبتلعك الهوة الفاغِرة.

ابحث، وناقش، وتساءل.. واجعل ضمن تسابيحك المقدسة: إلى أينَ..؟ ولماذا..؟

دائمًا تساءل: كيف..؟ إلى أين..؟ لماذا..؟

واعلم أنه لن يضيق بهذا التساؤل سوى الباطل.. أما الحق فلا شىء يُثلج صدره مثل هذا، التساؤل الذكى الدءوب..!!

من أجل هذا، ولأن الله هو الحق المبين، فقد حضَّ الناس على أن

يتساءلوا، وينظروا فى ملكوت السماوات والأرض، ويحاولوا معرفة كل شىء.. من: "كيف بدأ الخلق" إلى - "وأنَّ إلى ربك المنتهى" ..!!

وأثابهُم على هذا بوعد منه أن يكشف لهم من الأسرار ما يريدون كشفه ومعرفته:

"سأريكم آياتى، فلا تستعجلون" ..!!!

إن كل تسليم مطلق، نقص كبير من نفوذك، وأذى يحيق بقضية الحياة كلها..

والتصميم على أن تعرف، جزء كبير من مسئوليتك، كمواطن، وكائن..

فلا تضحِّ برأيك، ولا تتلاشَ فى غيرك.. ولا تكن إمعة تطفو فوق العباب..بل ارفع رأسك عاليًا بين الرءوس؛ ورقبتك بين الرقاب..

حاول أن تفضَّ بالسؤال مغَالِيقَ ما لا تعرف؛ من آفاق الكون العليا - إلى سَيْرِ الحياة فى شارعك؛ أو فى زقاقك..

وكن من الذين يجيئون الدنيا مُزوَّدِين بفضيلة الإصغاء؛ وفضيلة التساؤل..

ولا تقف أمام شىء - ولا تُجفِلْ عن استطلاع غيب عقائدك، وأفكارك، واتجاهات قومك وعصرك..

كل هذا أخضِعْه للسؤال.. وطَلَبِ المعرفة، والمنقد النزيه الأمين القوى..

هناك حكمة جليلة، قالها "المسيح" حين داوى مريضًا يوم سبت، فأراد خصومه أن يتخذوا من هذا العمل سبيلاً للتشهير به والتأليب عليه، إذ مارس العمل فى يوم عطلة الرب؛ كما يزعمون..

هنالك قال لهم المسيح:

"إنما جُعِلَ السبت من أجل الإنسان، ولم يخلق الإنسان من أجل السبت"..!!

أجَل.. إنما جعل السبت من أجل الإنسان..

كل شيء هنا ـ وجد من أجل الإنسان..

العقائد، والأفكار، والقوانين، والحكومات..

كل شيء، من أجل الإنسان..

فتقدَّم، ومارس حقوق سيادتك تِجاه كل شيء..

أخضع كل شيء لعقلك، حتى العقائد..

لا تَخْش شيئًا.. إن الله ذاته يشجعك على هذا السلوك..

بل إن حكمة الخلق، لتكاد تُومئ إلى أن المحاولات التى نبذلها لكى نعرف ـ من أهم مقاصد الخلق..

فما كان أيسر أن يكشف الله لنا أوّلاً؛ وبداءة.. كل أسرار خلقه..

ولكنه تركها مُستسرَّةً مخبوءة، لنكشفها نحن بمحاولاتنا لنسأل: كيف.. ولماذا..! ثم نتابع السؤال والمحاولة حتى يأتينا اليقين.. وخلال عملية المعرفة هذه لا نكشف المعرفة وحدها، بل ونكتشف أنفسنا معها..!!

* * *

إن الإنسان حين استمسك بكلمة "كيف" وجعل منها أداة تطلُّع ومعرفة، أنشأ العلم، وحَلَّ الكثير من ألغاز الكون..

منذ بدأ يقول "كيف" ..؟ وقلاع المجهول تستلم له قلعة وراء قلعة..

كيف يسقط المطر.. ؟ وكيف تعمل المادة..؟ كيف ينتقل الصوت

والضوء..؟

أسئلة كهذه غيَّرتْ مَصيرَه، أو قولوا كشفَت مصيره..

وكلمة "كيف" كانت "الشِّفْرة" التى خاطب بها المجهول..

ولقد توصَّل بـ "لماذا" إلى حكمة الحياة..!!

ففى حياتنا العامة، وفى شئوننا العامة، علينا أن نتوسل دائمًا بهذين المحركين القويين: إلى أين..؟ ولماذا..؟

أمام قوانين الجماعة، ونظمها - وأفكارها، والتيارات الظاهرة، والخافية فيها - قف، وتساءل: إلى أين، ولماذا..؟

ناقش كل شيء.. وافهم كل شيء.

ولا تُرِحْ نفسك من عناء التفكير فى المسائل العامة، فتلك الراحة موت مُحقَّق..!

وتجنب "الحياد" تجاه الواجبات العامة، والقضايا العامة..

فالحياد فضيلة، حين يكون موقفًا تجاه باطلين يتصارعان..

أما حين يكون الصراع بين حق وباطل، فلا حياد..

وكذلك حين يكون الحياد تَخلّيًا عن مسئولية دراسة الأوضاع العامة ونقدها - فإنه لا يكون حيادًا مقبولاً..

بل يكون - كما قال بركليز - خيانة وهروبًا..!!

لا بد أن يكون لك موقف أمين تجاه كل وضع، وكل مبدأ وكل تطبيق..

ولا بد أن ينبعث هذا الموقف من روح تريد البناء، لا الهدم، والتقويم، ولا التقويض..

ولا بد أن يكون هذا الموقف، موقفك أنت، فليس يغنى عنك شيئًا

أن يقول: إن الآخرين يعملون..

كلا - إن الحياة تريد عملك أيضًا.. تريد موقفك أنت.. ورأيك أنت.. تريده حتمًا وتريده بأسلوبك وبطريقتك..

تأكَّد من أنك تعطى الحياة بقدر ما تأخذ منها..

تأكد من أن الأفكار التى تغذى عقلك، هى خير الأفكار..

تأكد من أن القوانين التى تُسَنُّ فى بلدك إنما تُسن لصالح الناس..

ناقش جميع الذين معك، وحولك..

ناقش نفسك، وحاكمك، وأستاذك، وأباك.. وإذا أنكر أحد عليك هذا الحق، فأخرجْ له شهادة ميلادك، لتذكّره بأنك إنسان "!"

عندما تقدم من رسول الله ﷺ أحد الناس يقول له:

"اِعْدِلْ يا محمد، فليس المال مالك ولا مال أبيك"..

همَّ به "عمر" ليُسكت أنفاسه، فرده "الرسول" قائلاً: "دعه يا عمر.. إن لصاحب الحق مقالاً" ..!!

لم يكن الرجل صاحب حق، لأن "الرسول" لم يظلمه ولم يظلم غيره، بل كان - عليه السلام - يجوع ليشبع الآخرون..

وإنما أراد "الرسول" أن يحمى حرية النقد، وأراد أن يشجع الأدنى، على مناقشة الأعلى..!!

ولقد حَذِقَ "عمر" الدرس، فحين وَلِى إمارة المؤمنين، واقترب منه من يقول له: "اتق الله يا عمر"..

اعترضه أحد الصحابة زاجرًا إياه وقائلاً له "أتقولها لأمير المؤمنين"..؟؟

هنالك قال عمر "دعه.. فالويل لكم إذا لم تقولوها والويل لنا إذا

لم نسمعها..!!"

ولكن ليس معنى "لماذا" أن تكون فُضُوليًا متطفلاً مَقِيتًا تقتحم من أسرار الناس وحُرماتهم ما ليس لك بحق..

إنما هى أداة لفهم الأشياء والمسائل، فهمًا يعينك على اتخاذ موقف صالح تجاهها..

وأداة لفهم الناس فهمًا ليس الغرض منه تبين مواطن ضعفهم لاستغلالها ضدهم... بل الغرض منه مساعدتهم. والأخذ بأيديهم..

كذلك، ليس معنى النقد أن تكون سليط النفس، واللسان.. وأن تَصدُرَ فيه عن رغبة شريرة فى الإيذاء والكيد..

إن الحياة لا تضيق بالنقد، لكنها تضيق بالحقد. فأدِّ واجبك كناقدٍ أمين، ومُحبٍّ غَيور..

* * *

وانقُد ـ حين تنقد ـ فى حدود خبرتك ومقدرتك..

ودعنى أقْصُصْ عليك هذه الطُرفة، فإن لها دلالةً نافعة..

قالوا: إن رسامًا شهيرًا، آمن بجدوى النقد ونفعه، فكان يضع لوحاته خارج مرسمه لَدَى الباب، ثم يجلس خلفها فى وضع غير منظور، مصغيًا لآراء السابلة..

وذات مرة، عبَر الطريق "إسكاف" عرفه الرسام من صوته.. وتملّى الرجل اللوحة، وأبدَى بصوت مسموع كمن يحدث نفسه بعض ملاحظات، صادفت لدى الرسّام ارتياحًا، وقبولاً..

قال الرجل: ما أبدع هذا الرسم، لولا أن عنق الحذاء أطول مما ينبغى..

وحين استرجع الرسام لوحته، أصلح عنق الحذاء..

وفى اليوم التالى أعاد اللوحة إلى مكانها خارج المرسم وجلس هو فى مكانه..

ومرّ "الإسكاف" كعادته.. وكم كان عجبه، إذ رأى عنق الحذاء قد تقاصر كما كان يريد..!!

هنالك أخذه الزهو ومضى يبحث عن عيوب أخرى..

وسمعه الرسام يهمهم قائلاً: "والصدر أيضًا".. إنه بارز أكثر مما ينبغى"..!

عندئذ برز الرسام من مكمنه وقال له:

- اسمع يا صديقى.. اسمح لى أولاً أن أشكرك على ملحوظة الأمس واسمح لى ثانيًا أن أقول لك: إن نقد الإسكاف، يجب ألا يُجاوز عُنقَ الحِذاء..!!

ليس هذا حداً من نشاط النقد الحر، ولا تهوينًا من شأن الناقد إذا لم يكن ذا جاهٍ أو مكانة..

أبدًا.. وإنما هو دعوة لاحترام أمانة النقد، وقصر آرائنا على الجوانب التى تسمح لنا خبرتنا أن نُصدر فيها أحكامًا عادلة..

وهذه القصة. تمثل واجبا تلقاء نقد الحياة..

فلكل منا خبراته، ومجال معرفته، وعليه أن ينقد الحياة من خلال خبرته؛ وتجربته، ومعرفته..

فالنقد يكون مجديا، حين يجئ من خبير عارف.

أما حين يكون مجرد ادعاء، وتقحم، فلا إذن فيه، ولا نفع له.

* * *

وليس معنى النقد إصدار أحكام مطلقة. يضيع ما فيها لتحديد الحق من مغزى.. وليس النقد أحكامًا متطرفة تُحصى السيئة، وتجحد الحسنة.. ولا أحكامًا عَشوائية، تُلْقَى فى غير تثبت أو اكتراث..

إنما النقد أمانة، وقضاء..

وله ما للأمانة وللقضاء من حُرمة وتَحوّط..

* * *

إن كل فرد فى هذه الحياة، مَدعُوٌّ لأنْ يحرك وجوده بأن يسأل، ويفحص، ويناقش، وينقد..

كل فرد ملزم بأن يحمى الحياة من العبث، ويقف منها موقف "حارس البرج" يقظان مستعدًا..

وإذا كان حارس البرج، يتبين أشباح الظلمة بصيحته: مَن هناك؟

فإن حارس الحياة يتعقب نفس الأشباح بسؤاليه: "إلى أين"؟

"ولماذا"..؟ فابعث من طوايا العزلة وجودك المستقبل الواعى، وأدِّ دورك، كما لو كانت الحياة لا تحيا بغيره !!

إن التبعية المستسلمة والانصياع الأعمى يُشكّلان خطرًا داهمًا. على تفكيرك، وعلى مصيرك..

بل وعلى مصير الجماعة التى تعتمد على رأى كل فرد من ذويها.

ولقد ضرب الله لهذه التبعية مَثَلاً فى قرآنه الكريم، فقال: ﴿إذْ تَبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا. ورأَو العذاب، وتقطَّعَتْ بهم الأسباب وقال الذين اتَّبعوا . لو أن لنا كَرَّةً، فنتبرأ منهم، كما تَبرَّأوا مِنَّا كذلك يُريهم الله أعمالهم حَسراتٍ عليهم وما هُم بخارجين من النار﴾..!!

وإليك مثلاً آخر، يحذرك الله به من أن تفقد نفسك، واستقلالك

أمام من هو أكثر منك قوة، أو أرفع جاهًا..

إذْ يقول سبحانهُ:

ـ ﴿وإذا يتحَاجُّون في النار. فيقول الضعفاء الذين استكبروا: إنَّا كُنّا لكم تَبَعًا، فهل أنتم مُغنون عنا نصيبًا من النار﴾..؟

﴿قال الذين استكبروا: إنَّا كُلٌّ فيها: إن الله قد حكَم بين العباد﴾..!!

أجل.. إن الله قد حكم بين العباد، فإذا سكَت الناس عن حق ينتظر مُسَانَدَتهم إياه، أو جَنُوا أمام باطل، يستحقُّ دَحْضَهُمْ له.. فإنهم جميعًا يُنادَوْنَ إلى القصاص ويدفعون ثمن سُكوتهم، وهُروبهم..!!

* * *

إن الحياة تدعوك مُلِحة؛ لِتعلن فيها رأيك.. فتقدم.. وادرس.. وناقش..!!

إن أكثر معجزات تقدمنا الإنسانى، إنما بدأت بلفتةِ ناقد أمين..

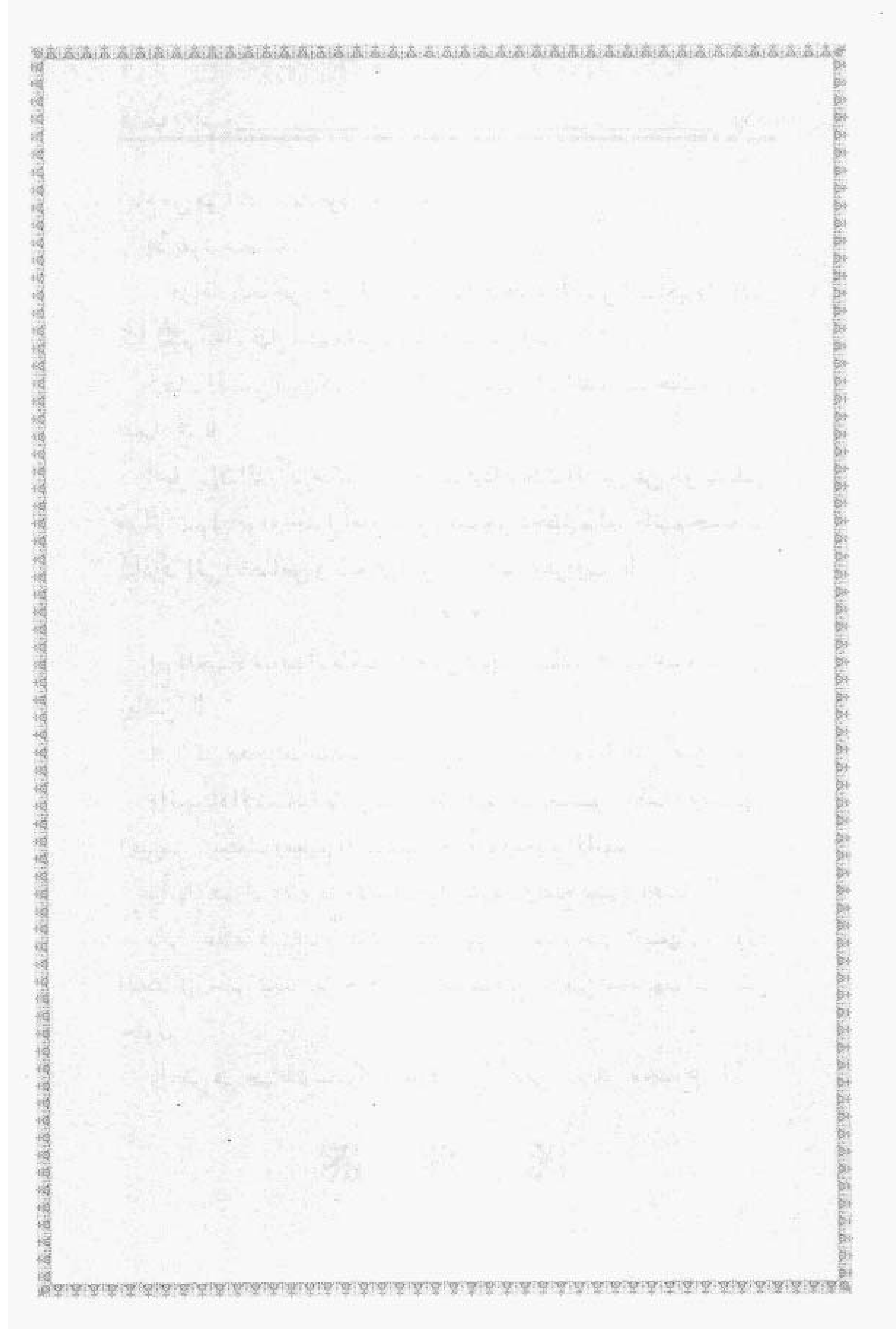
والحياة الإنسانية لا تريد لأعضائها أن يعيشوا عُمْيًا، ومعهم أعينهم.. وبُكْمًا، ومعهم ألسنتهم.. وصُمًّا، ومعهم آذانهم..

وإنها لَتبارك علامات الاستفهام البشرية، وتفتح لهم ذراعيها..!!

فكن "عَلامةَ استفهام" دائبة التنقل بين الأشياء حتى تفهمها، وحول المشاكل حتى تجد لها حَلاًّ، أو تُسهم مع الذين يبحثون لها عن حلول..

وامضِ فى حياتك بصيرًا .. عارفًا..غَيرَ أعمىَ .. وغَيرَ مخدوع ..!!

* * *



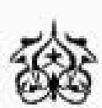
الوصيــــة السادسة

عِش صديقًا طيبًا

وليَكُنْ "اسمُكَ" نداءَ النَّجدَة للمكرُوبين..

ولْيكُنْ "قلبكَ" مَرفَأَ الرَّاحَة للمتعَبينَ ..









من مادَّة لغوية واحدة، جاءت كلمتا.. "صدق" "وصداقة" وكَلِمَتا "صادق" و "صديق" ..!!

والصداقة، التى هى أعلى مِنَح الحياة، تمتزج امتزاجا كاملاً بالصدق الذى هو أسمى فضائل الحياة.

وقديمًا، لم يأسف "سقراط" لشىء، مثل أسفه لعدم اهتمام الناس بالصداقة..!!

ومنذ عهد "سقراط" إلى يوم الناس هذا، مرَّ بالحياة كثيرون من الذين قدَّسوا الصداقة، وكثيرون من الذين أبِقُوا منها، وعاثُوا فيها فسادًا..

ولكن، مع المستوى العام للتقدم الإنسانى، تسير الصداقة مُجتازةً أضغان الأنفس؛ محققة لنفسها انتصارًا وتقدمًا..

وتحتفى الحياة - أول ما تحتفى - بالذين يرعون الصداقة، ويسقون شجرتها المباركة..

فهل أنت واحد من هؤلاء..؟؟

دعنى أولاً اذكّرك بأنك لا تعيش فى الدنيا وحدك، وأن العزلة محال..!!

فمهما تحاول أن تنطوى على نفسك، أو تعتزل الناس، فإن لك بالآخرين ارتباطات، ظاهرة، ومخبوءة، تربطك بهم، وتجمعك وإياهم فى لِقاء..!!

حين تجلس - مثلاً - فى خلوة، تطالع كتابًا، وتحمد العزلة التى أنت فيها، أتظنّ أنك - ساعتئذ - فى عزلة..؟

أبدًا.. فهذا الكتاب الذى بِيَمِينك "سنترال" يَصِلُكَ بعددٍ كثير من الناس من غير أن تدرى..

فهناك مؤلف الكتاب يعيش معك. ويؤثر فيك، وهناك الذين تأثر بهم المؤلف نفسه، وأثُر بعضُهم فى بعض - تنتظمهم سلسة طويلة، وَرَتْلُ طويل..!!

حيثُما وَلَّيتَ وجهك، تجد الحياة تواجهك، وتتابعك بعلاقات كثيرة..

فى عملك زَمالات، تعرف منها وتنكر..

فى الطريق، فى "المترو" تلتقى بناس تُبصِرهم، وينظرون إليك، وتترك نظراتهم العابرة فى نفسك من مَشاعِر الرضا ومن مشاعر السأم ما تحب، وما تكره..

بل فى بيتك؛ ومع أسرتك، ينقل إخوتُك وأبناؤك إليك، أصداء علاقاتهم بآخرين لا تعرفهم..

هكذا يأتيك الناس فى صُوَرٍ شتىً، ويتسللون إلى حياتك، راضيًا، أو كارهًا..

وفى دَوَّامة الحياة الكبرى، تُلاقى وجوهًا، وتُصافح أيديًا، وتُزاحِم مناكب، وتُنشئ علاقات لا أوَّل لها ولا آخر..

ومن ثَمَّ، كان تحديد صلتك بهذه الدوامة أمرًا ذا بال فى حياتك ومصيرك..

وعلاقات الناس بعضهم ببعض، تَرْسمها وتحددها أكثر من جهة.. فهناك القانون، وهناك الضرورة. وهناك العُرف.

ولكن خلال الرحلة الإنسانية الطويلة، اكتشف الإنسان أعظم مكتشافته فى هذا السبيل ـ وكانت الصداقة..

أجل ـ إن الصداقة، هى قمة التطور الذكىّ السوىّ، للعلاقات الإنسانية بأسرها..

وإذا كان الناس مُذْ وُجدُوا يكافحون الفقر، ويهربون من شقائه..

فاعلم أن شر صنوف الفقر؛ هو فقر الأصدقاء..

أجل.. ليس انعدام الثروة وحده هو الفقر.. بل إن انعدام الصديق؛ يمثل لونًا كابيًا من ألوان الحرمان والمجاعة..!

* * *

لا تُصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء.

ولا تصدق اليأس حين يُلقى فى روعك أن الصداقة أسطورة.. وأن الناس ـ جميع الناس ـ ذئاب..!

وليس عليك؛ لكى تكتشف مَزايا الصداقة؛ وَحَتْميتها، ولكى تعلم أن الأصدقاء فى الدنيا كثيرون:

ليس عليك لتبلغ هذا؛ إلا أن تبدأ أنت، فتكون صديقًا؛ جَرِّدْ من نفسك قاضيًا على نفسك؛ وأدِنْها؛ قبل أن تقف من الآخرين قاضيًا ودَيَّانا..!!

فإذا بدا لكَ منها قُصورها، وتقصيرها..

وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصديق وسماته.. فاعلم أنه من هنا غمَّت عليك رؤية الصداقة ورؤية الأصدقاء، وابدأ بنفسك. وكن صديقًا طيبًا..

وابدأ هذه البداية، بأن تعرف، ما الصداقة..؟؟

* * *

الصداقة سلوك تُعَبِّر به النفس عن حاجتها إلى نظير..

وهي "مشاركة" خالصة بين اثنين أو أكثر؛ على مستوىً عالٍ من النبل، والتفاهم، والإثيار..

وهي ليست "اتفاقًا تجاريًا" بين اثنين.. بل هي "ميثاق" بين قلبين، وحياتين، وإنسانيتين رفيعتين..

وكما تبذل جهودًا عظمى؛ لكى تظفر بإجازة عامية كبرى، عليك أن تبذل جهودًا مماثلة، لكى تظفر بصداقة..!

إن جهلنا بحقيقة الصداقة، يحرمنا من مباهجها الباقية..

فنحن نحسبها مِزاحًا ماجِنًا.. أو نفعًا مُتبادلاً.. أو وُصولية زائفةً.. نحسبها "لقاء" حول مائدة قمار، أو تواصيًا بأذىً، أو سعيًا مشتركًا وراء غرض خبيث..!!

كما نحسبها تبعية، ينماع فيها أحد الصديقين ليصير للآخر مجرد ظِلّ، ورَدِيف..!!

نحسب الصداقة كذلك.. وأسوأ من ذلك.. ونقيم علاقاتنا الناشئة عن هذا الفهم المغلوط على شَفا هاوية..

حتى إذا زلت الأقدام، وهوت من تحتها الأرض الرِّخْوة صرخنا قائلين: يا أسفًا على الصداقة.. ويا ضيعة الأصدقاء..!

ولو فكرنا قليلاً لعلمنا أن الذى كُنا فيه لم يكن صداقة. وإنما كان ضربًا من التسلية الفارغة، والنفعية المرذولة، واللقاء التلقائى..!!

أما الصداقة الحقة، فهى أبقى على الزمن من الزمن نفسه..

فإذا شئت أن تكون صديقًا، وتنعم بالأصدقاء، فأدركْ حقيقة الصداقة جيدًا؛ وهيئ نفسك لحمل تبعاتها النبيلة، وضَعْ نفسك على الغِرار الذى تتطلبه الصداقة..

ويومئذ، لن تندُب نُدرة الصِّحاب؛ لأنك ستجدهم كُثرًا مُباركين..!!

ولن تشكو غدر الأصدقاء، لأنك ستجدهم أوفياء مُؤْثِرين..!!

* * *

زوِّد نفسك بفضائل الصداقة، وَعَبِّئها بهذا المدد الكبير من الحب والخير، ونَمِّ فيها نزعة الإثيار حتى تتسع وتتراحب لا لإيلاَفِ الناس جميعًا..

كن صديقًا لمن تعرف.. ولمن لا تعرف..

افرح لكل فوز شريف، يناله إنسان - حتى إذا كنت لا تعرفه..

وتهلَّلْ لكل خير ينزل بساحة إنسان - حتى إذا كنت تجهله..

وأسهِمْ فى حل مشكلات الذين يدفعهم إليك الأمل فيك.. حتى لو لم تربطك بهم رابطة دانية..

وتألم فى نُبلٍ للأسى الإنسانى، حيث يكون..!!

اجعل من نفسك "مَرْفأ" تأوى إليه الزوارق التائهة التى زلزل الإعصار والموج ثباتَها..

وليكن اسمك - مجرد اسمك - كنداء النجدة.. لا يكاد المفزَّعون يسمعونه حتى تسكن ضلوعهم الواجفة، وتعود إليهم طمأنينتهم

الضائعة..

لا تحسبنى بهذا مبالغًا فى رسم صورة الصديق..

فالصداقة استعداد، هذه أُولَيات سِماته..

والإنسان الذى لا تكون نفسه مهيأة للخير العام عامرة به، هيهات أن تواتيه القدرة على أن يكون صديقًا، ولو مرة واحدة.!

فالصديق رجل كبير، لا يعرف قلبه الحقد، ولا يعرف ضميره عدم الاكتراث. ولا يضنّ على الناس كافة بما معه من رحمة، وحنان، ونجدة.

والصديق "قارَّة" كبيرة يجد النازلون بها رَحْبًا، وسعة وألواناً شتى من المباهج والفرص الحرة الكريمة..

والصديق، لا تنعكس فضائله على الذين يعرفهم فحسب.. بل على ما حوله جميعًا.. كالشمس ترسل دفئها وضياءها لكل ما هنالك من حياة، وأحياء، وأشياء..!!

تفيض بغير حساب، وتعطى فى غير مَنٍّ، وينال خيرَها مَن تفصلهم عنها مسافات، وأبعاد، وعوالم..

وكما أن الشمس لا تستطيع أن تقصر دفئها وضوءَها على قوم، وتحرم آخرين..

وكما أنها لا تفرق بين أحد ممن تعطى..

وكما أن العطاء العميم الشامل، هو طبيعتها، وشيمتها..

فكذلك الصداقة تمامًا.. لا تقف بها علاقاتها الخاصة.. عن انطلاقاتها العامة.. ولا تشغلها النَّجْوى مع الأقربين عن غُبور المسافات الطويلة، باذلة خيرها، ناشرة عبيرها..

إن كثيرين من الذين دأبوا فى ظلمة الليل، ووقْدة الحر، على كشف

دواء يشفي المرضى، أو اختراع ييسر للناس وطأة العيش، ويُذلّل لهم طرائق الحياة - إنما كانوا مدفوعين برياح الصداقة العميمة للبشر جميعًا..

ولقد عبَّر أحدهم عن المستوى الشامخ الرضِيّ من الفهم حين قال مخاطبًا زوجته: "دعينى أعمل من أجل أصدقائى الذين لا أعرفهم" ..!!

* * *

ذات يوم، ورسول الله ﷺ، جالس مع أصحابه، رنَا ببصرهِ الحانى، صوب الأفق البعيد فى هُيام ووجد، وقال:

- "يا ليتنى قابلت إخوانى" ..!!

فسأله أصحابه: يا رسول الله، ألسنا إخوانك..؟؟

فأجابهم: "بل أنتم أصحابى.. ولكنّ إخوانى، قوم يأتون بعدكم.. يؤمنون بى كإيمانكم.. ويحبوننى كحبكم من غير أن يرونى، فياليتنى قابلت إخوانى" ..!!

انظر، كيف اتسعت دائرة الشعور بالإخاء، وبالصداقة، حتى أدركت العوالم الوافدة من البشر، والأجيال التى تفصلها حواجز الأحقاب والقرون..؟!!

ذلك أن "محمدًا" عليه الصلاة والسلام، كان يحمل الاستعداد الكامل للصداقة الكاملة..

والاستعداد فى هذا المستوى، يكون كما أسلفنا كالشمس.. إنها قائمة ترسل الدفء والضياء، فمن تعرَّض لأشعتها اغترف منها، ونَعِم بها.

كذلك الذين وُهِبوا فضيلة الصداقة..

علاقاتهم الشخصية لا تمثل كل المجال الذى تنشط فيه عواطفهم الطيبة.. وإنما تمثل نِقاط التقاء، أزجَتْها ظروفها..

إن "السنْترال" الكبير، ينتظم آلافًا من خطوط الاتصال التليفونى.! فإذا عملت منها ألف واحدة، فليس معنى ذلك أن طاقة "السنترال" هى هذه الألف وحدها.

كلا.. فهناك طاقة كبرى ترعى آلافًا أخرى من الخطوط تنتظر توصيلها..

كذلك الصداقة الصادقة، تتسع لكل قلب يريدها وتعطى من وُدِّها الصافى عَطاءَ من لا يخاف خَصاصةً أو فقرًا..

* * *

نَمِّ هذا الفهم وهذا الحس فى نفسك.. وأقبلْ على الناس بروح صديق..

وإذا التقيتَ بالذين ستجمعك بهم صلة الصديق القريب المباشر؛ فضعْ فى عزيمتك أن تكون خير الصَّدِيقيْن..

هناك وصية للرسول تقول: "كن خيرَ ابْنَىْ آدم"..

أى إذا اجتمع اثنان، وكنت أحدهما، فكن خيرهما..

إن معظمنا يطبق هذه الوصية بعد أن يَقْلبَها، ويجعلها تقف على رأسها..!!

فحين تجمع ظروف العمل أو الحياة بين اثنين منا، يجتهد كل منهما أن يكون خيرًا من الآخر، مظهرًا، وأرفع منصبًا، وأكثر وجاهة. وكبرياء، وغطرسة..!!

ليس هذا، ما تريده الوصية الكريمة: "كن خير ابنى آدم"..

إنها تريد أن تسبق الآخر في الإيثار، والتواضع، والبر، والوفاء..

كان جماعة من الصوفية في سفر، وعند المبيت، أقبل أحدهم يسألهم عن غطاء اشتراه للسفر وأعده للرحلة فقال: "أين غطائي"..؟؟

فَدهِشوا.. وقالوا "غِطاؤك" ؟؟ أوَ لكَ غِطاء، ولنا غِطاء ؟؟ اعتزلنا..!!

لا أقول: إن هذه قاعدة عامة لسلوك عام.. لكنها إيماءة إلى اللُّباب الذي تنطوي عليه كل علاقة إنسانية صادقة ـ حيث يختفي التمايُز ويفقد "ضمير المتكلم" حقه في التوكيد على نفسه، وتنادي الصداقة ذَوِيها وأهلها، إلى مُباراة نبيلة في الإيثار والمكرمات..!!

كن خير الصديقين إذن، ولن تخسر شيئًا، بل ستجني أشهى ثمرات الوجود..

واجعل أساس الصداقة بينك وبين من تصادق ـ العلاقة الطاهرة التي تحدوها أسمى البواعث، ولا تلوثها الأطماع الهزيلة..

واختر أصدقاءك..

بقدر ما يكون توقيرك للصداقة، سيكون اهتمامك باختيار الصديق..

لقد قال الرسول ﷺ : "المرءُ على دين خليله، فَلْينظرْ أحدكم من يُخالِلْ" ..

إن اختيار الصديق يُشكِّل في حياتك أهمية بالغة؛ ذلك لأن كُلاًّ منَّا تنقص حياتَهُ جوانب، كان يتمنى إدراكها..

وكل منا، كان يود لو استطاع أن يختار حياته.. يختار فضائلها، ويختار ظروفها..

أما، وذلك غير ممكن، فإننا نلتمس العِوَض عند الأصدقاء، فنختار

منهم الذين نستطيع أن نستدرك بهم ما فات حياتنا من فرص الخير والتفوق..

ذلك أن الصديق، بحياته، وبفضائله، يصير امتدادًا لك، وتَتِمَّة لك..

وإن حياتك لَتتأثر به، وتنعكس عليها كل مَناقِبه ومزاياه..

فإذا اخترته، وأحسنت اختياره، كنت كأنك اخترت حياتك من أولى لحظاتها..!!

فمزاياه التى تنقصك، تصبح مِلْكًا لك..

والفضائل التى ضاعت منك فى زحام الحياة، تعود إليك مع هذا الصديق..!!

والحياة السابقة التى كنت تودّ أن تحياها، وتكُونَها، تقترب منك، إذا اخترت صديقك على غِرارها، ومن طرازها..

وهكذا، فالذى يحسن اختيار أصدقائه، يضع يده على الحظوظ الوافية..

إن الصداقة، هى المرفأ الذى ننزل بساحته الآمنة بعد رحلة فيها مشقة وكَبد..

وهى البهجة التى تزودنا بالقدرة على مغالبة الصعاب..

وهى ضوء الفجر الذى يذكرنا بأن الحياة تجدد نفسها دومًا، وتبعث بأنفاسها العاطرة إلى الرُّقُودِ المتعَبين، فيخفُّون سِراعًا ناشطين..!!

* * *

عندما أرى صديقين وَدُودَيْن، يتبادلان النظرة الحانية، والكلمة الدافئة، ويتألق صفاء الأنفس على وجهيهما فى مثل سَنى اللؤلؤ..

أقول لنفسي: انظر.. إن الحياة في عيد..!!

* * *

وقد تسألني: كيف أختار صديقي..؟

وأجيبك قائلاً: اسْتفْتِ قلبك.. فأنت أدرى الناس بالصديق الذي تريده.. ولكن لا ينبغي أن تسمح للرغبَات الرخيصة أن تستهويك مظاهرها، أن يُضلِّك زيفُها.

فاختر صديقك في ضوء الإنسانيات الرفيعة.. في ضوء القيم العليا التي لا يهبنا الخير مثلها، ولا يرفعنا عاليًا سواها..!!

ليس معنى هذا، أن تنشد ملاكًا يخطئ؛ فأنت في أرض الناس؛ ولست في سماوات الملأ الأعلى..

إنما اهتداؤك بالقيم والإنسانيات الكريمة؛ سيتيح لك التعرف بأقرب الناس رُحْمًا إلى الخير والنبل..

لا تختر الصديق لثرائه، ولا لجاهه..

فالحياة كثيراً ما تسخَرُ من أصحاب هذا الاختيار، بأن تُخبئ لهم في الطريق خيبة أمل عريضة، تفاجئهم بها في قهقهة وشماتة..!!

إنما عليك أن تختار الصديق لثراء روحه، وجاه خِصاله وأناقِة نفسه، ووثَاقةِ خلُقه، وتماسُكِ بنيانه..!!

لا تختره مِهذاراً ثَلاَبًا يُسلِّيك على الناس؛ فهذا الذي يهبط بحياتك إلى أدنى الحضيض..

والذي يقول اليوم "لك" فيضحكك. سيقول غداً "عنك" فيبكيك..!!

لا تختره حاقداً.. شعار حياته "سُحْقًا للناجحين"، فإن العواطف مُعدِية، وصحبتك لهذا التعس، تجعلك مثله تَعِساً..

لا تختره من الذين يرون الحياة لهواً ، ولعبًا ، وسِيجارًا ، وكأسًا . فإن الحياة فى صحبة هؤلاء، تتحول إلى نِفاية وَيَبَاب..!

بل اختر الصديق الذى يرى فى نجاح الآخرين، نجاحًا له وحُسن ثواب..

اختر دافئ اللسان، عَفَّ النفس، ريّان الضمير..

اختر من لحياته قيمة بما يبذل من جهد، وبما يلتزم من واجب، وبما يُمارس من دور عظيم..

فإذا اخترت أصدقاءك، فاذكر كلمة "هويتمان" : "إن وراء كل ظفر يتحقق، حاجة إلى الجهاد أشد وأعظم" ..

أجل، عندئذٍ قل لنفسك: لقد وجدتُ الأصدقاء، والآن علىَّ أن أحتفظ بهم..

لا تكن كالذى ينقُض غَزْله، ويبنى ليهدم..!

إن الصديق القويم، هو الجزء الغائب من حياتك، فإذا أعْثَرَك الله عليه، فاجعل من تمام شكره أن تحتفظ بهذه النعمة، وترعاها ، ولا تدعها تفلت من بين يديك..

إن الصداقة فى مجتمعنا رخيصة، وليس أهون علينا من التفريط فيها وعدم الاكتراث بها..

فتفوق على هذا السَّفه، وكن واحداً من الذين يَردُّون الأمور إلى رُشدِها ونُهَاهَا..!!

ولكى تحتفظ بأصدقائك..

ـ ابذل من وفائك بغير حساب.. فالوفاء لا ينقض بالبذل وإنما ينمو ويزيد.. ولا تظن أن الوفاء مقايضة.. فهو يُولِمُ لك، فتولم له.. وهو

يهدى إليك. فتهدى إليه.. وهو يزورك، فتزوه..

إن هذه مع أهميتها قشور، إذا لم تُفعَمْ بواطنها بروح الوفاء..

وروح الوفاء، مِعطاءة دائمًا. ومهيأة باستمرار لإرسال فيضها وسناها. لا تسأل: إن كان الذى ستدثره بسموها. يستحق أو لا يستحق.. لأنها تعبر عن نفسها. وتتنفس طبيعتها الفاضلة.. واذكر أن الصديق شخص آخر له شخصية، وله كيانه.. فلا تحاول أن تجعل منه تابعًا لك.. لا تحاول أن تفرض عليه رأيًا لا يقتنع به، أو سلوكًا لا يريده..

وحتى إذا كنت متفوقًا عليه فى بعض مَزايا الخلق، فلا يحملنك ذلك على دمجه فيك، وصوغه على غرارك..

لَوِّحْ بفضائلك أمام روحه فى رفق.. ودعها هى تقترب منها، وتختر طريقة الأخذ عنها..

أما أن تحاول تغيير طباعه طَفرةً، فهذا أقرب الطرق إلى أن تخسره..

إننا نخسر الزهرة، إذا تعجلنا نموها، فقطعناها..

أما حين نتركها فوق ساقها وجذرها، تمتص عن طريقها من الأرض الحياة، فإننا نسمع صوت نموها فى غبطة وأمل..!

كذلك صديقك، لا تتعجل نموه بفصله عن ذاته، وإلحاقه بذاتك أنت، مهما تكن فاضلاً، ومتفوقًا.. بل ساعده على توثيق عُرَى وجوده، وإزجاء الظروف الطيبة التى تسمح لفضائله بالازدهار..

اذكرْ دائمًا أن الصداقة مشاركة، لا تَلاشٍ، ولا ذوبان..

وليس من عمل الصداقة إزالة التخوم الطبيعية القائمة بين شخص وآخر..

إنما مهمتها ألا تتحول هذه التخوم إلى "خطوط قتال" بل ولا إلى "خطوط هدنة" .. إنما تظل حدوداً مشتركة، وأرضًا جامعة تترعرع فوقها صداقات عِدَّة، وعلاقات طيبة، وتُؤْتِى كلٌ روحٍ هُداها ..!!

- ساعدْ صديقك على أن يُهْرَعَ إليك بأسراره وهو مطمئن..

فنحن جميعًا تمر بنا تلك الأوقات التى ننوء فيها بأثقال أنفسنا، ونبحث عن الإنسان الأمين الذى نستطيع أن نفرغ أمامه همومنا، ونخرج له خبء أنفسنا، ونكشف له كل ذواتنا الباطنة، وشئوننا الخاصة. ونفتح له أبواب مملكتنا التى لا يعرف أسرارها أحد سوانا..

وحين يُسِرُّ إليك أحد بخاصة أمره؛ فهو فى الحقيقة يدعوك لتحمل عنه بعض همه.. فكن نبيلاً، واجعل لسر صديقك حرمة وقَدَاسة تنأيَانِ بك عن كل تفريط فى صونه وكتمانه..

إن حفظ السر أصدق دلائل الرجولة، والقوة..

والإنسان الذى يضع أسرار الآخرين على طرف لسانه الثرثار لا يساوى وجوده، رسم "شهادة الميلاد" التى لا يملك من مظاهر الحياة سواها ..!!

- والصداقة، كالكائن الحى، تحتاج دومًا إلى غذاء وَرِىٍّ. فلا تسلم علاقتك الودودة للفتور أو الشك..

تَعهَّدْها دائمًا كما يتعهد البستانى الحاذق زهور الحديقة وثمارها..

اسْقِها بالكلمة الحلوة، وبالبسمة الحانية، وبالنظرة الصافية، وبالمجاملة الصادقة، وبالمشاركة النبيلة، وبالثقة الوطيدة..

- والصداقة خُلطة دانية ودائمة، وكل خلطة بين اثنين عرضة للعثرة، وسوء الفهم..

فَوطِّدْ نفسك على النسيان والصفح، ولا تجعل أعصاب الصداقة مشدودة متوترة..

وَطِّنْ نفسك على أن تكون للمعاذير عندك حرمة، وللعثرات من تسامحك نصيب..

وإذا اعتذر صديقك عن خطأ أتاه، فتقبل اعتذاره بطريقة تُنسيه خطأه.. ولا تلجّ عليه فى تذكيره بخطئه، ولا تكن فى عتابه لَجُوجًا..

هناك وصية حكيمة قالها الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أتاه أخوه مُتنصِلاً - أى معتذرًا - فليقبل منه، مُحِقًّا كان أو مُبطلاً"..

بالله ما أروعها هذه العبارة الفاصلة: "محقًّا، كان أو مبطلاً" !

ذلك أن الاعتذار، يتضمن الاعتراف بالخطأ، ويتضمن الرغبة فى مغفرته..

فالذى لا يستجيب وجدانه لمثل هذه المواقف استجابة كريمة لا يكون إلا صاحب إنسانية متخلفة؛ تتسم بالبَلادة والجفاف..!!

- والصداقة اهتمام حافل بالرغبة فى الخدمة، وإسداء العون. فلا تحمل همومك إلى صديقك، ثم تعطيه ظهرك حين يحمل إليك همومه..

لا تُطالبه بالتفكير من أجلك، وتُخَطّى نفسك، ثم تنصرف عنه حينما يحدثك عن نفسه.. ولا تعامله كطفل، فتجامله مجاملة تستُر عنه أخطاء - يجب أن يتبينها، أو تشبعُ فيه غرورًا - يجب أن يتخلى عنه..

لا تخذل طموحه العادل، ولا تثبط همته الواثبة..

ولا تتخلف عن نصرته حين يستنصرك؛ ولا تجعله يفقدك حين يحتاجك..!!

هناك نوع من الناس، لا يمكن الاعتماد عليهم، إلا حين لا تكون

ثمت حاجة إليهم..!!

فلا تكن واحداً منهم، ولا تتخذ لنفسك صديقًا من بينهم. فعظمة الصداقة، أنها تحمل مسئوليات لا تفرضها قرابة ولا دم..

وإنها لتحملها فى غبطة تجل عن النظير..

ضع عينك على محاسن صديقك دومًا، وتحدث معه بشأنها، وامنحها ما تستحقه من تقدير وتوقير..

وبعد.. فإن كل ما كتبته لك هنا عن الصداقة؛ لَخّصَهُ وربما زاد عليه؛ إمام جليل من أئمة التصوف والهدى..

ذلكم هو "السَّرِىُّ السَّقَطِىُّ" رضى الله عنه..

أتحبِ أن تعرف ما قال..؟؟

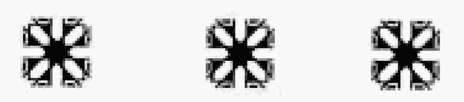
إليك عبارته التى لم يُقَلْ فى الصداقة؛ أجمع؛ ولا أمتع، ولا أوجَز منها..

ها هى ذى : "لا تتم المحبة بين اثنين؛ حتى يقول أحدهما للآخر: يا.. أنا"!!!

ولعل من الخير؛ أن نجعل هذه العبارة المضيئة ختام حديثنا عن الصداقة.

وإنه لِخِتامٌ حافل..

وإنه لِنِعْمَ الختام..!!!



الوصية السابعـــة

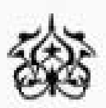
اقرأ فى غيـر خُضُوع ..

وفَكِّـرْ فى غَير غرُور..

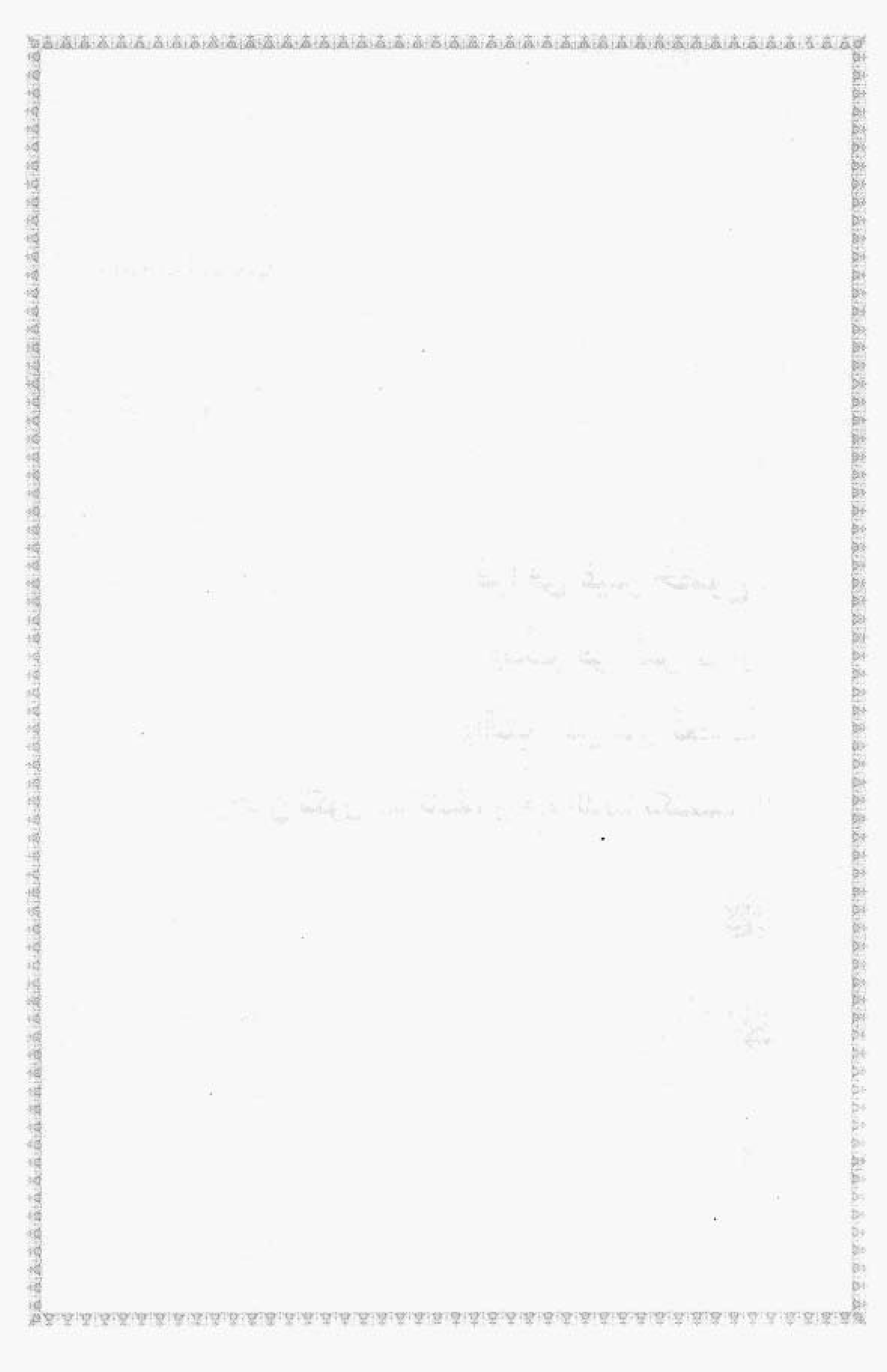
واقتَنعْ، فى غَير تَعصُّبْ..

وحِين تكونُ لك كلمة، وَاجِهِ الدنيا بكَلِمَتِك !!!









لن تستطيع أن تكون إنسانًا متطوراً ، ناميًا ، مستنيراً ، حتى تستعمل عقلك جيداً ..

وفيما حولك، تكمُن معارف ثرَّة وحقائق كبرى ـ تنتظر العين التى ترى، والأذن التى تَسمع، والبصيرة التى تفقَه..

والفارق بين إنسان يحيا الحياة، وتحيا فيه، وإنسان آخر يسمونه "ميت الأحياء" .. الفرق بين الاثنين ليس فى بهاء المظهر، ولا فى تراكم الثروة، ولا فى "شجرة العائلة" ..!

إنما هو فى ثراء العقل، والروح، والخُلُق..!!

والكون ـ كِتابُ ربنا ـ مفتوح لكل ناظر، ميسَّر لكل قارئ..!!

ومن الأفذاذ الذين نرفع نحوهم أبصارنا فى خشوع كثيرون أخذوا معظم ثرائهم العقلى والروحى، من هذا الكتاب الكبير..

نظرتُك إلى السماء ونجومها.. إلى الإرض وزرعها.. إلى البحر.. إلى النهر.. تأملك الناس، والأشياء.. لحظاتُ الصمت المفكر التى تستغرقك فيها سبحات روح طُلَعَة.. كل هذه أضواء تتيح لعقلك أن يكون نافذة قيمة على الحياة..!!

والكتاب المطبوع؛ مِرقاة كل إنسان حى إلى الكمال والتفوق.

والذى لا يُحْيِى عقله بالقراءة المستمرة، يستحق العزاء، والرثاء..!!

فإذا كنت من الذين يقرءون، فَهنِّئ نفسك، وطالبها بمزيد..

وإذا لم تكن؛ فأدرك مكانك فى القافلة؛ قبل أن تذهب نفسك حسرات..!!

إن الكلمة المطبوعة، من أثمن ممتلكات الإنسان، وخير ما أخرجت الحضارة الإنسانية للدنيا..

وصُحبة الكلمة المطبوعة، هى الحظوظ الوافية..

ولو خلَت الحياة من نعمة القراءة والفكر ـ لكانت عِبْئًا لا يُطاق..

هل تعرف أول كلمة تلقاها الرسول من ربه..؟؟

"اقرأ .." !!

إنه رسول، عابد.. رسالته وعمله، دعوة الناس إلى الإيمان بالله وعبادته..

ولو أننا تصوَّرنا أحق الكلمات بأن تكون بدء الوحى إليه؛ لتصوَّرنا أن تكون: صَلِّ .. اُعبدْ .. آمِنْ..

بيد أن الذى حدث أخلف الظنون، وبهر الألباب..!!

إذْ كان أول تكليف تلقاه الرسول ﷺ من ربه، هى القراءة.. وأول كلمة ألقيتْ عليه، هى: اقرأ..!!

إن الله سبحانه، يعلم بداية المعراج الذى يُفْضى بذويه إلى القمم الضارية فى الأفق الأعلى..

يعلم نقطة البدء والانطلاق نحو كل عظيم، وغرض جليل، ولقد أراد أن يدلنا عليها بهذه الكلمة التى استهلَّ بها الوحى إلى رسوله الكريم،

فقال: اقرأ..

والحق أنه وراء كل عظيم ـ ولستُ أقصد بالعظمة هنا ذلك البذخ أو الامتلاء بماديات الحياة الدنيا ـ إنما أعنى العظمة الحقة التى تجعل من صاحبها مَعْلَمًا من معالم الرشد الإنسانى..

أقول: وراء كل عظيم، حَشْدُ كبير من الكتب التى قرأها وأعمل فيها فكره الوثيق..

وحين تتبَّع سِيَرَ عظماء البشرية، تجد الشغف بالقراءة كان السِّمة المميزة لطفولتهم، ونشأتهم الأولى..

لم يكونوا ـ على الرغم من حداثة سنهم يبحثون عن الكتب التى يطالعونها؛ بل كانوا يهتدون إليها بسليقة ذكية.. كأنما كانوا مع هذه الكتب على موعد.. كأنما طالعوا "فهارس" المعرفة، وهم فى أرحام الأمهات، وجاءوا الحياة مزودين بِسجلٍ يحمل أسماءها..!!

* * *

ترى هل أنت من القارئين، الذين يحرصون على أن يعرفوا كل يوم جديدًا..؟؟

إنك ـ بوصفك إنسانًا ـ مُطالبٌ بأن تقرأ كثيرًا، وتفكر كثيرًا..

وبوصفك من سكان القرن العشرين، مطالب بهذا أكثر من أبناء القرون الخالية..

فالحياة اليوم تتفاهم مع الأحياء بلغة فُصْحَى..

أعنى أنها تتعامل معهم فى مستوى رفيع وبعيد، من المسئولية والتجارب..

والذين يُسايرونها من مستويات أدنى ـ لا يحسنون صُنعًا، ولا

ينالون منها إلا النفايات..

لهذا، أقول لك: اقرأ.. واقرأ.. واقرأ دائمًا..!!

فالقراءة هى النور الذى يسعى بين يديك.

وهى الرئة، التى تَنْشَقُ بها الحياةَ..

والكتاب، كما قيل، خير جليس. وخير أنيس..

ودعنى أسألك سؤالاً..

لو استطاع العلم أن يرد إلى الحياة بعض الناس لبعض الوقت، وأُذِيعَ - مثلاً - أن سقراط، وأفلاطون، والغزالى، وشكسبير، والمعرىَّ، وتوم بين، وروسُّو، وفولتير، وابن رشد، والفارابى، وهيجل، وماركس، وجيته؛ وأرسطو - سيكونون يوم "كذا" فى مكان مّا من العالم.. وخلال الفترة التى سيقضونها أحياء سيستقبلون زائريهم، ويتحدثون إليهم، ويجيبون عن أسئلتهم..

أفلا تركب إليهم ثَبجَ البحر، ومَخاطر الجو، وتُنفق من ثروتك بسخاء، كى تبلغ مكانهم، وتجلس إليهم..؟؟!!

ألا فاعلم أن العلم قد ردَّهم إلى الحياة فعلاً. وأنهم وجميع إخوانهم المفكرين، جالسون هناك.. ينتظرونك فى كل وقت.. وفى أقرب مكان.. وبأيسر نفقة..!!

أجل - فى أى مكتبة من المكتبات المبثوثة تلتقى بهم فى مؤلفاتهم..

لقد اخترع العلم الطباعة، وصنعت الطباعة الكتاب، وخلَّدت بين دفَّتيه أعظم تراث للبشرية كلها؛ وهو الفكر..

واعلم أيضًا - أنك حين تجلس مع كتاب لأفلاطون، أو شكسبير، أو ابن خلدون؛ فأنت فى الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء فى أصفى ساعات

حياتهم: وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم أحياءً..!!

ذلك أنهم فى مجالسهم العامة. يُعطون ما عندهم مُرتَجلاً ومُختلِطًا..

أما حين كانوا يجلسون للكتابة، فقد كانت عقولهم آنئذٍ فى مستوى رفيع من الاستعداد، والتألُّق، والتفوُّق..

وكانوا يغيرون، ويحورون حتى تخرج الفكرة التى يعالجونها، ناضجة، وافية، باهرة الأسلوب..

وهكذا كل كاتب تقرأ له..

إنك إذْ تقرأ له؛ تجالسه وتزامله فى أصفى وأملأ ساعات حياته وإنتاجه..

ومؤلف الكتاب الذى تطالعه ـ حاضر معك إذ تقرأ، يتحدث إليك من خلال السطور المطبوعة بخير ما أُوتِىَ من قُدرة على التفكير، والتعبير..

تُرى أى الأمرين خير وأبقى..؟؟

جلوسك فى "مقهى" تمارس ما يسميه الناس "قتل الوقت"..؟!

أم جلوسك مع سقراط، وبرناردوشو، وديورانت، وشوقى، وحافظ، وأعلام الفكر من كل عصر، ومن كل جيل..؟

أنا طبعًا لا أدعوك إلى أن تنسى حق نفسك عليك فى المرح والراحة، والتسلية..

ولكنى أربأُ بحياتك أن تذهب كلها تسلية..

وعزيزٌ علىَّ أن تعيش ما تعيش فقير العقل، جوعان الفكر، وحولك من الكنوز، ومن الأطايب ما يعرض نفسه عليك بغير ثمن، وبغير منٍّ،

وبغير حساب..!!

لقد أودعَ أساتذة تراثهم فى الكتب.. فلماذا لا تنشئ مع هؤلاء الرجال الكبار صلات..؟؟

لماذا لا ترتبط معهم بزَمَالة وصداقة..؟؟

لماذا لا تُسعد نفسك وتُشرفها بصداقة هؤلاء الذين أعلنوا رأيهم فى الحياة واصطفاهم القدر الإنسانى ليقولوا كلمته، ويُسجِّلوا خُطاه..؟

اقرأ.. واقرأ.. اقرأ كثيرًا، واقرأ دائمًا ـ إذا اردت أن تحيا..

ولا تسألنى ماذا تقرأه..؟

فكل كتاب يزيدك معرفة، عليك أن تقرأ..

ليس فى الثقافة حلال وحرام..

وليس فى المعرفة مباح، ومحظور..

هناك ـ لا غير ـ كتب هزيلة، تحمل هذرًا، وإسفافًا..

هذه ليست لنا على بال..

إنما أنا أدعوك.. للمعرفة.. للثقافة.. وللثقافة والمعرفة عبير، سيقودك إليهما..!!

فكل ثقافة أقبِلْ عليها، وكل معرفة، خُذ من مناهلها..

اقرأ فى الأدب، وفى السياسة، وفى الأخلاق، وفى الاقتصاد، وفى العلم، وفى الدين، وفى الاجتماع..

اقرأ فى كل شىء، وعن كل شىء.. وعشْ فى أوسع مساحة ممكنة من المعرفة والفهم..

وإذا كان لا بد لك من أن تقرأ ـ فأكثر من "لا بُدَّ" ، أن تعرف "كيف" تقرأ..!!

وإنى ألخص لك هذا فى عبارة وجيزة هى ذى:

ـ اقرأ فى غير خضوع..!!

إن للكلمة المطبوعة سلطانًا عظيمًا، وما لم تحتفظ بثبات رُشدك؛ واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات الآسرة، وتُلقى بك إلى متاهات، يصعب العثور عليك فيها..!!

فاقرأ قراءة الأحرار، لا قراءة العبيد..

اقرأ؛ لتكتشف نفسك لا لتفقد نفسك..

اقرأ لتتبين الطريق، لا لتصير ذَرَّة تائهة فوق الطريق.

اقرأ، وناقش ما تقرأ، واحتفظ باستقلالك الفكرى، ولا تجعل إعجابك بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله، وأن من الممكن أن يكون تحت سطح دماغك، كنوز تفوق كنوزه..

لا تستسلم لكل ما تقرأ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة، فَثَمَّت كلمات تقرر من غير أن تدرى مصيرك كله..

فإذا كانت من الكلمات الجامحة، أصابك منها ضر كثير..

والكتَّاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساحر آسر، سِرْ معهم فى أناة..

إنهم جديرون بشكرنا وثنائنا، وإعجابنا، لا ريب، ولكن اذكر أنهم مهما يُحلِّقوا عاليًا؛ فلا ينبغى بحالٍ أن نتلاشى فيهم، أو نذوب خلالهم، أو نتبعهم صُمًّا وعُميانًا..!!

ليس معنى هذا أن تقرأ وأنت تقاوم، أو تطالع وأنت تُوسوس. ويأخذك فى كل كلمة شك وارتباب.. لا ـ دع عقلك على سجيته، وسيرتب هو أموره..

وعندما تحس وأنت تقرأ بمثل حركة الرادار، فقف..

إن عقلك قد وجد نفسه هنا.. وإنك الآن أمام كلمة أو عبارة تحمل لك فيضًا من الأسرار والأفكار، إذا أنت تدبرتها ونحيتَ الكتاب جانبًا لتتأمل هذه العبارة التى اهتز عندها وجدانك، واخْتلَجَ عقلك..

لا تهمل هذه الوَمَضات التى تُواتيك وأنت تقرأ.. فإنها مفاتيح كنوز جليلة..!!

عندما تبلغ عبارة، تمسّ روحك مَسّ الكهرباء، وتحس فيها شيئًا يستوقفك ويبهرك، فَنحِّ الكتاب قليلاً، وأصْغ لما توحيه إليك، وفكِّر فيها. ستفتح بصيرتك على عالم من الأفكار جديد..

وهذه مزية القراءة..

فنحن لا نقرأ لنزُيد معلومتنا، وننمى معارفنا فحسب، بل نقرأ، لأن القراءة تلهمنا، وتُطل بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الإنسانى..

وكأىٍّ من مخترع، أوحَى به لمخترعه، مثل هذه العبارات النابضة..

وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها، حين استجاشت حماستهم العقلية عبارة مضيئة قرأوها، أو حركت رصيدهم الفنى، لَفْتَة من لَفَتات الفكر الخلاَّق..!!

كأنَّ هذه العبارة، أو هذه اللفتة، "عصا المايسترو" لا تكاد تتحرك، حتى ينطلق العازفون فى عزف لحنهم المحفوظ..!!

إن فى عقلك الباطن، كثيراً من الرُّؤى والتجارب، تنتظر عارضًا يَسيراً يدفع بها إلى وَعْيِك.. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها، أو مشهدًا تراه، أو عبارة تستوقفك فى كتاب..

فلا تقرأ، وأنت غافل ساهٍ.. بل طالع في يقظة، وتفتُّح ومتابعة.. وهَيِّئ بصيرتك لتتلقى ما تُفيئه الكلمة المسطورة من حِكمة وإلهام..

وإذا قرأت، ففكِّر..

لقد ضرب الله للحقيقة مثلاً - أولئك الذين حُرِموا نعمة الفقه، والتفكير.. فقال تعالى: ﴿جعلنا لهم سمعًا، وأبصارًا، وأفئدة، فما أغْنَى عنهم سَمْعُهم، ولا أبصارهم ولا أفئدتُهم من شيء﴾ ..!!

فَعِش مفكرًا..

لقد تعودنا أن نُطلق وصف المفكر على أولئك الذين يُحوِّلون المجهول إلى معلوم، والغموض إلى وضوح.. الذين يُقدمون إلينا عقل الحياة..!!

وهذا حق ..

ولكن من الحق أيضًا، أنك تستطيع أن تكون واحدًا من هؤلاء حتى لو لم تؤلِّف وتكتب..

وتستطيع أن تغنم من التفكير، وتظفر من مزاياه بما يرفعك - مهما يكن حظك منه - إلى مستوى "إنسان مفكر" ..

ذلك أن مزية التفكير أنه يؤكد وجودك الخاص، ويَـهَبَكَ وجهة نظر خاصة تجاه الحياة، وقضاياها..

فإذا نَمَتْ وجهات نظرك هذه إلى حدٍ يدعو لبروزها والتعبير عنها، وجدتَ نفسك مسوقًا لأداء هذه المهمة فتكتب أو تتحدث.

وفي أي مستوى من مستويات البلاغ كنت؛ فأنت مفكر: ما دمت قد فكرت فعلاً وكونتّ لنفسك بنفسك وجهة نظر جديدة..

إن "سقراط" لم يؤلف كتبًا.. ومع هذا فهو في الصف الأول دومًا،

والمكان الأعلى بين مفكرى البشرية كلها..!!

لماذا وهو لم يؤلف كتابًا..؟؟

لأنه عاش مفكرًا، وعكَس على الحياة صورة تفكيره.. وبذلك استطاع أن يؤلف مكان الكتب جيلاً من الفلاسفة لا يزال الفكر الإنسانى وسيظل يقبل على موائده مفتوح الشهية..!!

و "جمال الدين الأفغانى" لم يؤلف كتبًا - عدا رسائل يسيرة محدودة .. ومع هذا فقد ملأ الدنيا وشغل الناس..!!

ولم يكن ينزل فى بلد ميت ويقضى تحت سمائه بضعة أشهر حتى تقوم فى هذا البلد ثورة.. أو يسقط عرش.. ويُكتب تاريخ..!!

لم يكن يصنع أكثر من أن يدير خواطره الذكية على مشاكل الناس، والدنيا .. يقرأ، ويفكر، ويقرر.. ثم يجلس إلى حفنات من مريديه، يتحدث إليهم ويودع قلوبهم شجاعته وعقولهم حكمته.

وهم بدورهم يفكرون.. ويقررون.. وتنتقل العدوى النبيلة الطيبة شيئًا فشيئًا حتى تتحول إلى قدر يبلغ أمره.

و "توم بين" حين نزل أرض الولايات المتحدة، وهى يومئذٍ مستعمرات بريطانية، أتاها جائعًا عُريانًا، مُزودًا بوصية إلى أحد سكانها الأثرياء، ليجد له عملاً يعيش من كفافِه.. فإذا هو بعد هبوطه الأرض الجديدة بثلاثة أعوام؛ لا غير، يُشعِل فيها ثورة الاستقلال التى حررتها إلى الأبد..

أىُّ سر كان معه..؟؟

هذا الفقير المعدِم العاطل..!!

لقد قرأ كثيراً، وفكر كثيراً، وكانت أفكاره تنمو داخل نفسه حتى

جاء ميقاتُ ميلادها، وتهيأت لها ظروف كبيرة جليلة، فخرجت كبيرة جليلة..!!

وهناك بين الناس المُستعبَدين المُضطهدين، جلس وكتب بضع صفحات أسماها "الفهم" أو "حَصافة" لخصها وجهة نظره التى كونها تفكير طويل، وأعانت عليها قراءات كثيرة.. وقرأ سكان الولايات جميعًا هذه الصفحات؛ فإذا هم ينطلقون كالإعصار.. وإذا النار المقدسة تتأجج، وراية الحرية تخفق..

ويرتل الناس كلمات "بين" وأفكاره فى كل مكان ـ فى البيوت.. فى الشوارع.. فى المدارس.. فى الميدان.. تحت ضَرَبات المعركة.. وفى مراكز تموين القوات المحاربة.. الصِّبْية، والشبان، والكُهُول..!!

فكِّر إذن، وفكِّر دائمًا، وحوِّل عقلك فى كل اتجاه؛ فإنك لا تدرى أى عملاق رابض تحت ضلوعك.. فكِّر، لا لتكون "سقراطًا" أو "توم بين" أو "الأفغانى" وإن كان من الممكن أن تكُونه..

بل فكر لأنك إنسان، ومن ضرورات إنسانيتك، أن تكون مفكرًا، وأن تكون لك وجهة نظرك، تجاه عالمك، وتجاه كل قضايا الحياة..

ولكن..

ـ فكِّر فى غير غرور ..

ليس هناك أحد، فيلسوفًا كان أو عبقريًا، يملك وحده الحقيقة ويعرف وحده جميع الصواب.

إن الناس لم يُختصروا فى واحد.. والحقيقة لم تَحبِس نفسها داخل دماغ..!!

كل فكر يرى الحقيقة من جانب، ويكشف منها عن جزء.

وكل تفكير مهما يكن شامخًا، فليس سوى شمعة فى "شمعدان".

بل "شمعدانات" كثيرة، ترسل معًا، الضوء الذى يعين على رؤية الحق شيئًا فشيئًا..

فمهما يفتح الله لك من رحمة وحكمة لا تدع الغرور يستحوذ عليك - إن الغرور عزاء تقدمه الطبيعة لصغار النفوس، فلا تكن صغير النفس..!!

واذكر أن آفة كل تفكير سديد، هو الغرور الذى يأخذ ضحاياه بعيدًا عن الصواب، ويعزلهم دون أن يدروا عن مجال المعرفة والفهم.

لقد كان شعار العالِم الرياضى الكبير.. "لاجرانج".. هذه الكلمة الباهرة - "لا أعرف"..!!

و"نيوتن" وأنت تعرف من نيوتن.. كان يقول:

"إنى أتراءى لنفسى، كما لو كنتُ غلامًا يلهو على شاطئ البحر وأسَلِّى نفسى بين الحين والحين بالعثور على حصاة أكثر مَلاسَة أو صدفة أكثر جمالاً.. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامى دون أن أعرف عنه شيئًا."!!

ففكر حين تفكر؛ دون أن تتخلى عن فضيلة التواضع، ودون أن يأخذك الغرور بعيدًا عن حقيقة نفسك..

وإذا فكرت فى حَصَافةٍ وسداد؛ وجدتَ تفكيرك هذا يُصدر قراراته تِباعًا فى كل موقف؛ وفى كل واقعة.. ووجدته يكوِّن لك فلسفتك التى تقتنع بها؛ وعقيدتك التى تؤمن بها؛ وآراءك التى تدافع عنها..

وستقول فى اعتزاز: هذا رأيى.. وهذه عقيدتى..

حسن هذا؛ فلا بد أن يكون لك أى رأى، ولا بد من أن يكون لك

اقتناع تؤدى واجباتك حسب مقتضياته..

لكن اذكر دائمًا؛ أن رأيك، أو اقتناعك ليس هو الحق كله؛ لأن واحدًا بمفرده لا يستطيع أن يعرف الحق كله..

إن رأيك فى أعلى مستويات صدقة وحِذقِه، يمثل وَجْهًا من وجوه الحقيقة.. وهو - إذا صادف الصواب - تفسير صحيح للمسألة التى يعالجها، لكنه ليس التفسير الأوحد، ولا التفسير النهائى..

ضع فى يقينك، أنه لا أحد يصيب كل الصواب.. ولا أحد يخطئ كل الخطأ..

ومن ثَمَّ، فالحقيقة لا يملكها عقل واحد.. وإنما تُهدى إليها جميع العقول، العاملة فى سبيل الوصول إليها..

والإنسان الرشيد، هو الذى يسعى لرؤية الأشياء كما هى، لا كما يريدها.

وكل هذا يقتضى أن ترفض التعصب.

فإذا اقتنعت بقضية ما، فليكن اقتناعك ثمرة الفهم..

لقد انتهت تلك العهود التى كان شعارها "لكى تفهم، يجب أن تؤمن".. وجاءت عصور، شعارها.. "لكى تؤمن، يجب أن تفهم"..

فكل إيمانٍ لك، يجب أن يكون ثمرةَ فهم، وتفكير، واستقصاء..

وما دام سيكون كذلك، فجدير به أن يظل على ولاء واحترام للقوة التى أنجبته وأثمرته - وهو العقل.. أجل - مادام إيمانٌ ثمرة العقل والتفكير، فأوَّل واجباته، أن يظلَّ مستعدًا لسماع كلمة العقل والتفكير..!

إن الذين يتعصبون، هم الذين يؤمنون إيمانًا أعمى.. إيمانًا وراثة،

أو عدوى، أو تقليد..

وهم يتعصبون لما عندهم، لأن التخلى عنه يتطلب منهم جهداً عقليًا، هم أعجز عن أن يقدروا عليه..

ويحسب المتعصبون أنهم أقوياء الإيمان، بيد أنهم واهمون، لأن الإيمان القوى الرشيد يحمى نفسه بالتسامح والفهم، بينما يبحث الإيمان الضعيف المهلهل عن سِنَادٍ من التعصب والجهل يحمى به بناءه المتداعى..

إننا فى عصر يستمد عمليات المعرفة، حقائقه، ومذاهبه والمعرفة ترفض التعصب رفضًا مطلقًا؛ لأن غاية المعرفة، الوصول إلى ما هو حقيقى..

والطريقة الوحيدة لمعرفة ما هو حقيقى، اشتراك جميع العارفين فى الكشف عنه.. وهذا يتطلب أن تُطرح جميع مقدماته وقضاياه فى حلبة الجدل، وفى مجال النقاش والفحص، ويقتضى ألا تحوط وجهة نظرك بتقديس خاص، يذود الآخرين عن مناقشتها.. فقيام فكرة عظمى، فى فكرة عظمى نظيرها، هو ما تريده الإنسانية، وما يمليه الرشْد..

ولنذكر أن التقدم الإنسانى، كان سُيحقق أضعاف انتصارته هذه، بمجهوده أدنى، وضحايا أقل.. لو أن الناس تعودوا من عهد بعيد أن يفكروا فى غير هوى، ويؤمنوا فى غير تعصب.

ولنذكر أن أفضل مكاسبنا الحضارية، يتمثل فى النمو الخُلقى الذى يضع التسامح مكان التعصب، والفهم مكان المغالطة، ونُشْدان الحقيقة مكان سيادة الهوى..

نَحِّ التعصب دائمًا من عقلك وقلبك ..

ولا تقتنع بالأشياء التي لنفسك إليها هوًى .. ثم تذهب باحثًا عن البراهين التي تثبت صحتها ..

بل ابدأ بالبراهين أولاً .. ودعها وهى تهدك إلى النتائج القويمة ، والأحكام السليمة .

لا تكن كالقاضى التركى القديم ، الذي كان يحكم على المتهم بالإعدام، ثم يقول وهو يفتل شاربه ! " والآن نناقش الشهود ".!!

ناقشْ الشهود أولاً .. استعرضْ البراهين، والمقدمات والشواهد.. وتَأمَّلهْا. واقرأ معظم إن لم يكن جميع وجهات النظر التى أبْديت فى الموضوع.. ثم اخترْ فى أناة، وبغير تحيز، رأيك أنت. واقتناعك أنت..

فإذا اقتنعت بشيءٍ ما، فلا تُعطِ اقتناعك صفة الخلود..

فلا مكان اليوم للأحكام النهائية..

العلم يكشف كل آن جديداً. ولا يفتأ يعلمنا أن الجمود انقرض وأن التعصب جهالة. فكن مهيأ دومًا للسير فى موكب الحقيقة الجديدة.

لا تكن من الذين يقولون: إمًا .. وإمًا .. هؤلاء الذين يحسبون أن الشىء إما أبيض، وإما أسود.. ولا ألوان أخرى هناك..

كلا .. هناك " إمًا " الثالثة.. وهى تتكرر إلى ما لا نهاية..

فابحث وراء هذا الفيض من الاحتمالات، ولا تَطحنْ نفسك بين شِقَّىْ رَحَى " إمًا .. وإمًا " ..!!

ليس معنى هذا أن تقضى عمرك تائهًا بلا مَرفأ .. وليس معناه أن تعتزل الحركة الراجحة فى تيار الحقيقة والصدق..

إنما معناه أن تبلغ هذه الغاية بجهد البصير، لا بتواكُل الأعمى.. وأن تحتفظ باستقلالك الفكرى، حتى إذا بزغَتْ من بين الآراء

المتفاعلة حقيقة جاء ميعادها، سِرتَ تحت رايتها مع السائرين على بصيرة وهُدًى..

وتجنُّبك التعصب للفكرة، يعنى ترك التعصب لصاحبها..

ولكى تختار آراءك اختيار الراشدين الأحرار؛ سيكون لك حق مناقشة الآخرين..

ومهما يكن هؤلاء الآخرون، فلا تتلق منهم "الأحكام الجاهزة" بغير أن تمر فى أنبوبة الاختبار الخاصة بك، وهو عقلك.

تعلَّم من جميع المعلمين.. ولكن تعود أن تلقاهم فى أفكارهم لقاء الند القدير، لا لقاء التابع الضرير..

ادرس آراءهم وناقشها.. فإذا اقتنعت بها فخذ مكانك إلى جوارهم، وارفع رايتك إلى جوار راياتهم - وستكون آنئذٍ سائرًا وَفق رأيك الذى وافق آراءهم..!!

أجل.. ستكون سائرًا وفق رأيك أنت، وإن كانوا هم الذين دَلُّوك عليه، وهَدَوْكَ إليه..

ذلك أنك لم تقبله مُغمضَ العين؛ بل أدرتَ عليه خواطرك، وقلَّبتَ فيه وجوه رأيك، وعانيتَ اكتشاف ما ينطوى عليه من صدق. وتركتَ عليه طابعك..

وهذا كله يجعلك صاحب حق فى أن تقول: هذا رأيى..

وهذا مزية التفكير، والاختيار..

إنهما يُعلنان سيادتك، ويُحرِّرانك من عوامل التبعية والخضوع.

* * *

فإذا قرأتَ فى غير خضوع..

واقتنعتَ فى غير تعصب..

وأراد اقتناعك هذا أن يعبر عن نفسه بكلمات، فقلها بقوة وإبانة.

انطق بما تقتنع به فى غير فَأْفَأة، وفى غير هروب..

- واجه الدنيا بكلمتك، ولا تقل: مَن أنا..؟؟

فمعظم ما فى عالمنا من حقائق، ومبادئ، إنما بدأت بكلمات قالها أفراد.

كل مبدأ عام، يؤمن به الناس اليوم - إنما كان دعوة رجل واحد.

وكل طريق عام تمضى عليه أجيال البشر، إنما اكتشفه فرد، أو أفراد لا يزيدون عنك - إن زادوا - إلا بما بذلَتْ عقولهم من جهد، وما تحلَّتْ به إرادتهم من شجاعة..!

فهَاتِ كلمتك، ولا تَخجلْ، فلعلها حقيقة جديدة ينتظرها التقدم الإنسانى، وقد جاء موعدها.

لا تحقِرنَّ من تفكيرك السديد شيئًا، فإنك لا تدرى ما ينطوى عليه من عَطاء..

إن الرجل الذى قال: "الأرض تدور حول الشمس". لم يكن فى حسابه يوم قال هذا، شىء مما ترتب على كشفه فيما بعد من فُتوح ومعجزات..

والرجل الذى حاول أن يصطنع لنفسه جناحين يطير بهما منذ قرون بعيدة، ولما سقط قال: "سيفعلها القادمون بعدى"..!! لم يدرِ أنه بهذه الكلمات العابرة والمحاولة الساذجة إنما يصدر القرار الذى سيمهره العلم - فيما بعد - بتوقيعه..!!

هل تعرف ماذا فعل الرسل، وماذا فعل كل الرواد الذين صاغوا

مصير الإنسان ..؟؟

لا شيء سوى أن قالوا كلمتهم، ووقفوا بجانبها..

فقل كلمتك.. إن الحياة تنتظرها..!!

لا تحسب أنك جئت إلى العالم متأخرًا.. أو أن الحياة الإنسانية قد سَوَّتْ مَشاكلها.. وأتمَّتْ أمورها، ومن ثَمَّ لم تعد بحاجة إلى من يقول أو يفكر أو يعمل..!

قل كلمتك فى أيسر الأمور، وأخطرها..

قلها؛ فإن تك خطأ، صححتَ خطأك.. وإن تك صوابًا ساعدتَ الآخرين على الاقتراب من الحق..!!

وإن تَكُ مما لا يتفق والسائد المألوف، فقلها أيضًا..

سيتهمك الناس بالتمرد..! أليس كذلك..؟؟

ألا فاعلم أنه لم يمر بأرض الناس هذه، عظيم مبدع إلا بدأ فى أعينهم متمردًا؛ ثم انتهى إمامًا ورائدًا..!

انطلق بما يدور فى خلدك، فلو كبَتَ كل إنسان فى نفسه ما يراه حقًا لفسدت الأرض وانقرضت الحياة..

إن بين يَدىْ ثورات الحرية فى كل زمان - كلماتٍ هتَفتْ بها، ولولاها ما قامت هذه الثورات..

وبين يَدىْ كل الإصلاحات الشاهقة، كلماتٍ دعَتْ إليها، ولولاها، ما كانت هذه الإصلاحات..

وقُوى الظلام لا تطمع فى شيء أكثر من إسكات الكلمة المضيئة.

إن أعداء "محمد" ﷺ لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت..

وأعداء "المسيح" عليه السلام لم يكونوا يريدون منه سوى

السكوت..

وجميع الذين علّمونا، وكشفوا مجاهل حياتنا، رفضوا أن يقايضوا على حقهم في القول، بكل ما في الدنيا من كنوز، وتيجان.!!

حقًا إنه "في البدء كان الكلمة" وستبقى الكلمة أبدًا الرائد والدليل..!!

وإن وَلاءَ الحياة للكلمة لَيَفُوق كل ولاء.

انظر.. كم من سكان الكرة الأرضية اليوم وقبل اليوم يعرف اسم الملك أو الحاكم الذي كان يحكم "أثينا" أيام أفلاطون؟

إنها قلة لا تذكر.. ولكنْ تسعة أعشار سكان الكرة الأرضية يحفظون اسم "أفلاطون" حتى الأطفال في المدارس..!

كم واحد من العالمين، يذكرون أو يعرفون اسم القيصر الذي كان يحكم روسيا أيام "تولستوي"..؟

إنها قلة ضَحْلَة..

أما الذين يعرفون تولُستويْ، ويقرءون له.. فمئات ملايين تنادي مئات ملايين..!!

هذه عظمة الفكر.. وعظمة الكلمة..

فقل كلمتك إذا كنت من المفكرين والكتاب..

وقلها إذا كنت من غير المفكرين والكتّاب..

لا تكن من الذين يخافون أن يقولوا كلمتهم، وينتظرون أن يسمعوها من غيرهم..

* * *

ولكن اذكر أنني أقول لك: قل كلمتك.. ولستُ أقول: افْرضْ

كلمتك.. فالطريقة التى تقول بها كلمتك؛ وتَعْـرِض بـها فكـرك، لا تَقِـلُّ أهمية عما فى كلمتك من حـق وقيمـة، هنـاك أنـاس يتكلمـون، كأنـهم آلهة..!!

ويعرضـون آرا ءهـم وأفكـارهم وكأنـهم يقولـون: "أمَرْنـا بمـا هــو آتٍ"..!!

لا تكن من هؤلاء أبداً.. ولا تخاطب غيرك من فوق منصة الأستاذية.. وخير غرض تتوخّاه بكلمتـك أن تزيـد بـها عـدد الأحـرار، لا عـدد العبيد..

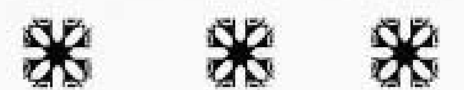
وذلك يقتضى:

أن تقولها.. لا أن تفرضها..

وأن تحاول بها الإقناع.. لا الإكراه..

والهداية.. لا السيطرة..

وعندئذٍ قلها بصوت راسخ.. فإن الحياة تنتظر سماعها..!!

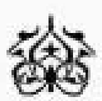


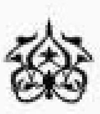
تقبلْ وُجَودكَ ، وَطَوِّرْه

وَاخْتَرْ حيَاتكَ، وَعِشْها..

وابْقَ إِلَى النِّهايةِ حَامِلاً رَايَتك..!









ولد لأحد الحكماء الأقدمين ولد. فبكى..

قيل له: ما يبكيك ..؟

قال: الآن مات..؟

حكمة مناسبة لكى نبدأ بها حديثنا هذا..!!

فنحن حقا يصبح الموت قدرنا المحتوم منذ اللحظة التى يتلقانا فيها المهد.. أن كلا منا يجىء الحياة ومعه بطاقة.. مكتوب فى أعلاها، "ولد" ومكتوب فى أسفلها "مات"..!!

بيد أن رحمة الله وحكمته، تحجبان عنا الكلمة الأخيرة، لتتم بهجتنا بالحياة، ولنظل فى تفاؤل يمنحنا حوافز الحياة..!!

أما ذلك الفيلسوف، فقد قرأ الكلمتين معا حين بشروه بوليده فبكى. وقال: الآن مات..!

لأنه ما دام قد وجد؛ فهو حتما سيفقد..!!

وأنا أحب أن أتصور القصة فى وجهها الآخر..

أتصور الحكيم يضحك..

فإذا سئل، لماذا يضحك؟

أجاب: الآن ولد..

لستُ أعنى الطفل طبعًا .. إنما أعنى الفارس الذى يتضمنه الطفــل.. والوجود الضخم الذى يمثله هذا الوليد..

إنه لشىء مُبهج، ومُحيِّر معًــا ، أن نُبصـر مـيلاد طفـل فـى ظـل هـذا الشعور وهذا التفكير..

لقد أتيح لى ذلك أكثر من مرة.. وكنتُ كلمـا أهـلَّ الوليـد صارخًـا ضحِكْتُ..

لا تحسب أنى بهذا أنتحل صفة الحكماء..!!

تُرى ما الذى كان يضحكنى؟؟

كنت أنظر إلى قطعة اللحــم الحمـراء التـى لا تكـاد تمـلأ رَاحتَـى القابلة.

وأقول لنفسى: هنا، مُغامر جديد جاء يجرب حظه..!!

وإنه لَيصرُخ ليخبر الدنيا بقدومه، ولتفسح لــه مكانًـا سـريعًا كأنما ليس لديه وقت للانتظار..!!

وأتأمل مشهده، وهو يضطرم فى حركة وعنفوان يركُلُ بساقيه ويُلـوِّحُ بيديه فأكاد أقول لـه: صـبرًا يـا أخانـا، فالعـالم فـى مكانـه لـن يَريـم، والأرض ساكنة لن ترحل.. صبرًا وسيجىء دورك..!!

* * *

الحقيقة أن كل ولادة، حادث عظيم.. وأن كـل مولـود، حيـاة هائلـة تقمصت جسدًا لتلعب دورها عن طريقه.

كل ولادة، وكل مولود هذا الشأن، خاصـة حيـن نسـتعرض الأفـذاذ الأعلام الذين اختارتهم الأقدار من بين الأكـواخ المعدمـة.. وتلقتـهم الحياة يوم وُلدوا فى مُهود خشنة مـن ورق العشـب، أو مِزَقِ الأسـمال

البالية..!!

أجل، عندما نستعرض الحشد الجليل من رُسُل الله، وقادة الأمم، والمبشرين بالحق والخير، وعباقرة الفكر، والفن، والعلم.. ونرى الأكثرين منهم تختارهم العناية من بيوت فقيرة، لا تقع عليها العين في زحام الحياة ـ نقول: حقًا إن لكل ولادة شأوًا، ولكل مولود نبأً..!!

فمن يدرى كُنْهَ القوة الكامنة فى هذه القطعة الملساء من اللحم..؟ ومن يدرى أى دور هائل سيؤديه هذا الوليد.؟!

ولكن لنبدأ من البداية..

قلنا: إن الحكيم بكى لميلاد ابنه، وقال: الآن مات..

وقلنا: إن هذا سر الحياة.. كل مَن يفد إليها يومًا، يرحل عنها فى يوم آخر..

كلنا نعلم هذه الحقيقة، فهل حملنا هذا اليقين على كُره الحياة..؟؟

هل حملنا يقيننا بأن الموت مصير كل حى على أن نكُفَّ عن طلب البنين والبنات، والفرح بميلادهم، وبحياتهم، أعظم ما يكون الفرح والابتهاج..؟؟

كلا، وإننا لنحب الحياة.. ونحب أن يكون لنا فيها نسل، مع علمنا بالمصير..

وإذا كنا نتقبَّل مبدأ الحياة ونحن نعرف نهايتها.. فيجب أن نتقبل نوعها.. على أى وجه يكون..

نحن لا نجىء الدنيا فى ظروف واحدة..

فهناك الغِنَى، والفقر، والصحة، والمرض، والتقدم، والتخلف..

ولكل منا مهد يتلقاه، ويصوغ أوليات وجوده وخامات مصيره ـ

حسب ظروف البيئة، والإمكانات المحيطة بهذا المهد..

وإذا تصورنا الحياة سِباقًا، فنحن لا نبدأ السِباق من نقطة واحدة.. وهذا أحد الألغاز الكبرى التى تنطوى عليها الحياة.!!

ولكن إذا كنا لا نبدأها من نقطة واحدة - كما يبدو - فإن التعويض سر آخر عجيب من أسرار حياتنا..!!

وما أكثر الذين تقتضى ظروف حياتهم أن يتخلفوا، أو يسيروا فى بُطء، بيد أن قُوًى هادرةً تتحرك داخل أنفسهم، حين تضغط إرادتهم على محرك هذه القوى فإذا هم سبَّاقون لا يُدرك لهم شأو، ولا تُنال لهم خُطًى..!!

فنقطة البدء إذن لا تهم فى تقرير المصير، بقدر ما تهم طريقة السَّيْر..

فمهما تكن ظروف نشأتك؛ فعليك أن تتقبل وجودك.

هذه هى الخطوة الأولى الحكيمة فى السباق الذى تربح فيه حياتك.

* * *

تقبَّل وجودك فى طمأنينة وغبطة، كائنًا ما يكون هذا الوجود..

حين تَقع فى يدك قارورة ثمينة، بها ماء آسِن، فأنت لا تحطمها بسبب ما فيها، وإنما تُفْرِغها، وتغسلها جديداً، وتملؤها بالعطر الذى تريد..

ووجودنا، فى التشبيه البسيط، قارورة ثمينة..

كل وجود حى له قيمته، وله نَفاسَتُه..

وأنت تتسلم وجودك، مملوءًا بما لا حيلة لك فيه من ميراث الأهلِين، ورواسب الخَلْق..

وعلى أى صفة يكون، فهو وجودك.. تذهب يمينًا أو شمالاً.. تتخذ لك نفقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السماء، لا مفرَّ لك منه ولا مَهْرب..!!

هذا إذا تصورت وجودك تصورًا مغلوطًا متشائمًا، فحسبته غُرْمًا لا غُنم فيه..

على أن الأمر ليس كذلك أبدًا. فكل وجود مهما تكن ظروف نشوئه، ينطوى على قُوًى باهرة ومقادير عظمى..

ولقد ضربتُ لك مثلاً - أساتذة البشرية الذين تسلموا وجودًا فى مستوى عادى.. وجودًا محوطًا بصعابٍ قهروها واتخذوا منها مزية ومِعراجًا..!!

كما أن هناك كثيرين تسلموا وجودًا مَحوطًا بالنعم والمباهج، وكافة الظروف المساعدة، مع هذا فقد تحطموا على أول الطريق، ولم يصلوا بوجودهم ذاك إلى شىء - أى شىء..

إن الدفَّة بأيدينا، والرُّبان القدير، يحسن التفاهم مع الريح، ومع الموج؛ فيتم رحلته فى عافية..

تقبَّل وجودك إذن، وشمِّر ساعدك؛ لتصنع من خامات هذا الوجود حياة إنسان عظيم وكريم..

نحن نُعطىَ الوجود، ونأخذ الحياة..

وساعةُ الميلاد، تدق مُعلِنةً وجودنا.. لكنَّ ساعةَ الرشد، هى التى تدق مُعلنة بدء حياتنا..

فإذا كنت على حظ من الرشاد كبير، فستصنع من وجودك الخام، حياة نابضة، نامية، باهرة..

فَسِرْ بوجودك فى رفق واتئاد، مُيممًا وجهك شطر المصايرِ العظيمة،

فى حفاوة ورشد..

ومهما تبذل من جهد، وتتفصَّد من عرق، وتسهر مع نجوم الليل فسيطلع لك فجر منبلج، يبشر بمقدم الأيام المنتصرة - أيام حياتك الوارفة التالدة.. وعند الصباح يحمد القوم السُّرى..

مَثل الوجود، والحياة.. كمثل الصخر والتمثال.. عندما ترى مَثَّالاً ينحت من حجر أسداً.. فانظر كيف حوَّل الحجر الأغلف إلى أسَد..!!

إن الحجر هو الوجود..

والتمثال هو الحياة..

وكما تحول الحجر فى يد المثال الحاذق إلى أسد عجيب.. كذلك أنت عليك أن تحول وجودك الخام إلى حياة ذكية..

واعلم أن وجودك ينطوى على كل مقومات الصورة الباهرة التى تريد أن تجىء حياتك وفقها..

فالنموذج الذى يريده كل منا لنفسه، رابض داخل نفسه محفورة معالمه على جدران وجوده ينتظر أن يملأ أخاديده بالحكمة وبالعزيمة فإذا النموذج ينهض قائمًا..!!

عندما سأل "سقراط" أباه وكان هذا الأب مثَّالاً بارعًا: كيف يصنع بإزميله المعجزات..؟؟

أجابه قائلاً: "عندما أريد أن أنحت من الصخر أسدًا؛ فإنى أبصر الأسد كامِنًا فى الحجر. وأحسّ به رابضًا هناك تحت السطح ينتظرنى أن أطلق سراحه.."!!

وعندما سأل أمه عن سر مهارتها فى توليد الحوامل من الأمهات؟ أجابته قائلة: "إننى فى الحق لا أصنع شيئًا، سوى أن أعاون الطفل

المستكنّ فى الرحم على البزوغ والانطلاق"..!!

إن حياة "سقراط" بما فيها من حكمة، وما لها من شموخ مدينة بجلالها الباهر لهاتين الإجابتين اللتين سمعهما من أمه وأبيه.

ولقد أخبرَ فيما بعد، أنه لم يَصنعْ لكى يكتشف نفسه، ثم لكى يساعد الآخرين على اكتشاف أنفسهم، وحيواتهم، أكثرَ من هذا الذى كان يصنعه أبوه وأمه..

ونحن جميعًا.. وأنت وأنا.. وكل إنسان حى، لا يصنع، لكى يحول وجوده إلى حياة، أكثر من هذا - رؤية الأسد الكامن فى الحجر، ومساعدته على الانطلاق..

فتأملْ دائمًا هذه الحكمة الجليلة التى قالها لسقراط أبوه..

- "إننى أرى الأسد كامنًا فى الحَجَر؛ وأحِسُّ به رابضًا هناك، ينتظرنى كى أطلق سراحه" فحياتك كامنة فى وجودك كُمُونَ الأسد فى الحَجَر..

وهى تنتظرك لتعاونها على الانطلاق.

وهذا يتطلب منك فطنة وبصيرة..

فالنحّات الذى لا يبصر فى الحجر سوى صلابة الصخر، يَضرب ولا يُبالى..

أما الذى يُبصر فى الحجر أسدًا رابضًا، فإنه يحرك إزميله فى مهارة، ويضرب الحجر فى ذكاء..!!

إنه يتحامى أى خطأ قد يشوه جمال الأسد الكامن هناك..

ومن ثم - فهو يحرك يده فى لمسَاتِ فنان، لا ضرباتِ هرقل..!!

وهو يكابد بعقله، لا بعضلاته..

وبذكائه، لا بعواطفه..

وهكذا شأنك مع حياتك..

تصور النموذج الذى تريده، وفى أية سن كنت من سِنى عمرك، فأنت قادر على أن تُولَد من جديد، وتكون لك الحياة التى تريدها..

إن فيك خيرًا كثيرًا، واستعدادًا هائلاً للتفوق.. أبصِرْه جيدًا.. ثم احمل إزميلك - وانحت لنفسك الحياة التى تريدها فى حِذق، وأناة، وإصرار، ونهلُّل..!!

* * *

وإذا أدركت أنك تصوغ حياتك، فلتكن من الذكاء بحيث لا تقضى عمرك فى صياغة حياة لغيرك..

أجل، كن من الذكاء بحيث لا يغتالك التقليد.

كن نفسَك، وعش حياتك..

إن لكل منا نموذجه الكامن فيه، وواجبه أن يطلق سراحه، ويعاونه على الظهور والتألق..

فإذا كنتَ نفسك، وعشتَ حياتك، فإن كل جهودك ستتجه نحو نموذجك، تُجلِّى قسماته، وتُنمِّى حسناته، وتؤكد استمراره وانتصاره..!!

أما إذا ذهبتَ تقلد الآخرين، وتبدد جهودك فى تقليدهم فأنت بهذا، إنما تعاون نموذجهم هم على انطلاق أكثر، وانتشار أكبر..!

أنت بهذا تهمل فضائلك ومزاياك، وتتركها للذبول والجفاف، بينما ترعرع مزايا غيرك، التى قد لا تكون فى المستوى العالى لمزاياك التى أهملتها..!

إننا نقلد، لأننا نجهل طبيعة الحياة، ولأننا قبل هذا كافرون بأنفسنا

وبقيمتنا..

إن الحياة تريد التنوع، وتباركه، وتعمل به، وله..

انظر..

إن الزرع مختلف ألوانه.. والثمار لها صنوف شتى.. بل إن النوع الواحد من الفاكهة الواحدة ـ كالمانجو مثلاً، أو البرتقال أو العنب، ليتنوَّع، ويتشكل فى نماذج كثيرة..

وهذه البلايين من الناس الذين وُلدوا، ويولدون، من بدء الخليقة إلى الأبد.. يؤكدون قانون التنوع بما بينهم من تفاوت مبين..!

بل حتى حين يصور الله سبحانه توأمين فى صورة واحدة أو شديدة التماثُل، فكأنه بهذا أيضًا يظهر قيمة التنوع..

كأنه يقول لنا: انظروا.. إننى قادر على أن أخلقكم جميعًا متشابهين كهذه التوائم.. ولكنى لا أريد.. لأن التنوع بَرَكة، وفى التنوع حكمة..!!

أجل ـ إن التنوع بركة وخير.. وإنه لمن أهم مصادر الثراء للحياة الإنسانية..

ولو أن حياة البشر سارت على نَسقٍ واحد، لانقرضتْ وبادتْ..

فلماذا تقلد غيرك إذن، وقد جئت الحياة لتكون نموذجًا جديدًا من نماذجها..؟؟

لماذا جِيء بك إلى الحياة إذن، إذا كنت ستكون مثلاً لغيرك..؟

أتظن الحياة معرض ظِلال أو مسرحَ عرائس..؟؟!

لا ـ إن الحياة جِدٌّ، وتجديد.. وأنت هنا لتحيا حياتك وتعطى ثمرتك..

وهذا يقتضيك أن ترفض التقليد..

هناك فارق بين أن تقلّد غيرك، وأن تنقل إلى نفسك فضائل هذا الغير..

فأنت بالتقليد تهدم نفسك، وأنت بالتطعيم، ترعاها وتزكّيها..

حين تنقل إلى حياتك المزايا التى تنقصها، تكون كمن يعوض فقر دمه، بقدر محدود من حقن الدم.. وهو عمل صالح ونافع..

لكن حين تذهب لتقلّد غيرك تقليد القِرَدَة، تكون كمن يريد أن يستصفى آخر قطرة من دمه تجرى فى عروقه؛ لكى يملأ هذه العروق بدم آخر من فصيلة أخرى.. ربما تكون فى النظام الطبقى للدماء أعلى شأنًا وأنبل عائلة.. "!"

ألستَ تضحك من حماقة الذى يفعل هذا الصنيع، ويرثى لنكبته.؟؟

ألا فاضحك تمامًا من حماقة من يقضى عمره غريبًا عن حياته، يقلد هذا، ويقلد ذاك ـ تاركًا وجوده وحياته ومزاياه بغير عائل، وبلا مُعين..!!

إنه لينطبق عليه المثل الذى يقول:

"ذهبَ يطلب قرنًا، فعاد، وصوف ظهره مجزوز.."!!

فآمن أنت بنفسك، واحترم وجودك، واختر حياتك..

لا تقلّد غيرك، فتقضى العمر تائهًا عن نفسك، غائبًا عن حقيقتك، ضالاً عن مصيرك..

هل تحب أن تقضى عمرك فوق "سقّالة" معلقة بين الأنقاض.؟؟

إنك تفعل هذا تمامًا، حين تنفق أيامك فى تقليد هذا وتقليد ذاك.

إن الحياة تريدك أنت..

بخيرك وشرك.. بقوتك وضعفك.. بجواهرك، وخزَفك..

لا تَخفْ أن تكون نفسك أبدًا.. مهما يبدُ لكَ من غرابة مزاياك، وجِدَّة رُؤَاك.. فلعلك بذرة جديدة تنطوى على نمط جديد من أنماط الحياة..!!

لا تدع إعجابك بأحد ـ كائنًا ما كان ـ يصرفك عن اكتشاف نفسك واستنباط المواهب الكامنة فيك..

ماذا كان يصيب الحياة، لو قلد كل إنسان إنسانًا آخر يعجبه..؟؟

ماذا كان يصيبها، لو قلد "محمد" رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، ونام عن الجديد الذى كان يحمله بين طواياه، والذى هَدَى به الدنيا من ضلال..؟؟

ماذا لو قلَّد "بوذا" أباه، وعاش للملك والجاه وحدهما، ولم يخرج بعظمة روحه على السائد المألوف فى بيئته..؟!

ماذا لو قلَّد "وشنطن" أساطين أسرته، وضاع حياته على أن يلتزم نهجهم ـ كِبارَ تجار ومزارعين ـ لا غير..

ماذا لو فعل، ولم يستجب لوديعة الحياة عنده، وهى أن يقود أمته إلى الحرية والاستقلال، ويصوغ معها أول وثيقة سياسية لحقوق الإنسان: ؟؟

ماذا لو استمع "لينين" لوصية أستاذه الذى حاول إغراءه باحتذائه قائلاً له: إنك خُلِقتَ لتكون أستاذ جامعة ممتاز..

ماذا لو قلده، ولم يخرج خبئه العظيم فيحرر أكبر أسواق الرقيق فى الأرض من حكم القياصرة الجاثم، ويقود قومه فى عزم عظيم باهر إلى مطالع الضوء، ومشارف الغد..؟!

ماذا لو اكتفى "غاندى" بتقليد والده.. فعاش محاميًا ناجحًا،

وكبيرًا نابهًا في قومه ـ يلتزم الحق أيضًا. ولكن يَنْفِضُ يديه من متاعب الجهاد العام الكبير في سبيل تحرير وطنه اللاحِب العريض.

ماذا لو فعل، ولم يقل لصوت التاريخ المنطلق من داخل نفسه: لَبَّيْك..؟!

ماذا كانت الحياة البشرية ستخسر، لو أن هؤلاء جميعًا وأمثالهم، راحوا ضحية التقليد، ولم يخرجوا خبء أنفسهم المعطية، وحياتهم الجديدة الثرية.؟!

ثم انظر الصورة من وجهها الآخر، وقل:

ماذا كانت الحياة ستدرك من خير ورحمة، لو لم يقلد هتلر نابليون..؟!

ولو لم يقلد نابليون، جنكيزخان؟!!

ولو لم يقلد جنكيزخان، الأسكندر الأكبر؟!!

حقًا إن التقليد خيبة، وكارثة.. وإنه لشر ما ينزل إنسان بنفسه من ضر ودمار..

احلم بدل أن تقلد..

وانسج حياتك من الأحلام الخلأقة العظيمة..

احلم كثيرًا، فالذين لا يحلمون، لا يعيشون..

احلم الأحلام الذكية التي تستمد صدقها، وقود إفصاحها عن نفسها، من مواثيق الحياة، ومن روح العصر..!!

حاول أن تكشف مشيئة عصرك في أعلى مراحل تطورها والتحِم بها التحامًا وثيقًا. واحلم عندئذ، فستأتي أحلامك باهرة وقادرة، وستتحول إلى قرارات وحياة..

وساعتئذ، ستكون واحداً من الذين يقدمون للحياة أنفسهم التى صاغوها وأنجبوها..

وهذا خير ما تنتظره منك الحياة - أن تقدم لها حياة جديدة تنسجها أنت على غرار اخترته، ولا تنقلها عن حياة أخرى بطريقة تشبه "شفَّ الصُور.."

إن ميزة أعاظم الرواد الذين مروا بالحياة الإنسانية تتمثل فى أنهم قدموا للحياة نماذج جديدة مبتكرة - هى حيَواتُهم التى صنعوها وأحسنوا صنعها.

لم تمنعهم آراء الآخرين عن أن يختاروا بأنفسهم لأنفسهم ما يرونه أمثلَ وأهدَى..

ولم يصدهم احتمال السقوط؛ عن توقُّل المرتفعات والقمم..

ولم يصرفهم احتمال السخرية؛ عن التشبث بمواقفهم العادلة ولو تخلى هؤلاء عن أدوارهم الكبرى..

ولو عاشوا حياتهم من الباطن.. باطن الآخرين الذين كان يمكن أن يؤثروا فيهم..

لو جعلوا من أنفسهم طبعات مكررة لغيرهم، ولم يَشُقّوا لأنفسهم وللحياة طرائق جديدة..

لو فعلوا ذلك، لخسروا أنفسهم، ولخسرت الحياة كل هذا الجديد السديد الذى جاءوا به، فَنمّوا به ثراءهم، ووسعوا به نطاقها..

اختر حياتك من خامات جديدة ما استطعت.

واترك على الأرض بعد عمر طويل، آثار قدَمَىْ إنسان جديد مرَّ بها، وأضاف إليها.!

لا تخف أن تجيء حياتك بجديد لم يألفه الناس الذين معك وحولك..

فمن يدرى ..؟ لعل هذا الجديد على موعد مع تطور الحياة.

كم من تقاليد كانت راسخة وطيدة تصبّ حيوات الناس فى قوالبها، فيخرجون منها صوراً متشابهة. وذات يوم بَدا لفردٍ واحد أن يخرج بحياته من ربقتها فكان هذا إيذانًا بانتهاء عهدها وإهلال أنماط جديدة بشّر بها تَمسُّكُ هذا الواحد باختيار حياتِه، وممارسة حقوقه..!!

* * *

إن امتلاكك أرضًا، أو دارًا، أو ثروة.. إنما هو امتلاك نِسبى..

أما المِلكية الحقة المطلقة، فهى مِلكية النفس..

أجل.. إن خير ثرواتك وأزكاها، وأبقاها هى نفسك؛ حياتك..

فلتكن سيد نفسك، وسيد حياتك..

واعلم أن حرية روحك كفيلة بأن تبوِّئك بين الأحياء العاملين مكانًا عاليًا - إذا عرفت كيف تستخدمها فى توكيد ذاتك، واختيار حياتك، وإذا جعلت القانون الذى تضعه بنفسك لنفسك، مظهراً صادقًا لإرادتك، وإذا هيأت نفسك للانتفاع بالفرص العادلة التى تسنح لك، والتى تناديك، لتصوغ منها نموذجك الخاص.. هذا النموذج الذى يتمثل فى النهاية إنسانًا جديداً، وإنسانًا حقًا..

* * *

اختر حياتك إذن سالكًا الطريق الذى تهيئه لك قُدْراتك..

واكتشف مزاياك أنت. ثم نَمِّهَا مستعينًا على ذلك برؤية الآخرين الذين حققوا تفوقًا كبيراً وصاغوا بأنفسهم حياة جليلة.

لكن لا تُجاوزْ الرؤية إلى التلاشي..

لا تُجاوزْ الإعجاب الحافز، إلى التقليد الضرير..

ووَفْق ظروفك وطاقاتك..

وَفق استعدادك، وذكائك..

وَفق طموحك العاقل العادل..

وَفق رؤاك الذكية الباسلة.. تقدم وضع حياتك فى غير نُكوص وفى غير تهور..!!

إن الذى ينتحر بأن يُعرّض نفسه لما لا طاقة له به من ثلوج قمة عالية، يَهْرَؤُه صقيعها، كالذى ينتحر بإلقاء نفسه فى ظلمات بئر عميق..

إذا حلقتَ طائرًا فى الطبقات البعيدة من الفضاء، بحيث تفقد التنفس والهواء؛ فلن تذهب شهيد السمو، بل ضحية الغرور والنزق..!!

وأيضًا، إذا ترديت فى الحفرة الفاغرة، فلن يكون لك عذر أنك لم تبصرها، لأن الله جعل عينيك فى مقدمة رأسك، ولم يجعلها من وراء..!!

ماذا يعنى هذا الذى أقول..؟؟

معناه ألا تركب الشطط فى تطوير وجودك وإرباء حياتك..

وألا تستسلم للعجز والهزيمة.

ولكنْ سِرْ فى شجاعة، وحكمة..

ولا تكترث وأنت تختار حياتك بمخالفة الناس. ما دمت لا تخرج على القيم الإنسانية الثابتة والعليا.. وما دمت لا تفعل ذلك لمجرد الرغبة فى المخالفة والرغبة فى الظهور الساذَج.

لا تكترث بمخالفتهم، إذا ألحَّ عليك من ذات نفسك جديد من

الأنماط يريد أن يظهر.. فأنت كما قلتُ لك ـ قبلاً ـ نمَط مستقل فريد، مهمتك أن تعطى ثمرتك، وتخرج جوهرك.. وتتعاون مع الآخرين من غير أن تتلاشى، وتكتمل تيار الحياة، من غير أن تقدم نفسك طُعْمةً لأمواجه..

اختر حياتك عند أعلى مستويات التفوق الممكن والكمال الميسور..

ثم عِشْها كما هى، حياتك أنت..

لا تضق بما يعتورها من ضعف ومن خطأ ولا يحملنك ذلك على مغادرتها ومقاطعتها..

عشها.. عشها كلها.. عشها جميعًا بحفاوة وشجاعة وإصرار على أن تكون سيد هذه "المملكة" الطيبة المتواضعة التى هى حياتك..

وهكذا تعيش حاملاً رايتك، ولا تتلجلج بها يمينك فتسقط على الأرض..

* * *

إذا أخذتَ لحياتك نَهجها، وصممتَ لها فلسفتها التى ستهدى خُطاها على طول الطريق.. فقد نسجتَ الراية التى ستكون رمزًا لحياتك كدولة ذات سيادة.. فاحمل رايتك إذن فى ولاء وعزم.. وابق إلى النهاية حاملاً لها..

ليس معنى هذا أن تجمد، وتقف تطورك النفسى والفكرى.. فنحن نغير رقعة الراية، إذ لوَّحتْهَا الشمس، أو أوْهَنَتْها الرياح..

جدد رايتك أيضًا، ودائمًا، ما دامت تمثل السمة المميزة لحياتك النامية، وفلسفتك الذكية الصاعدة.

ودَعها تخفق فى جوِّ السماء، مُعلِنة أن هنا وجوداً قد تطور إلى حياة.. وحياة صاغها صاحبها فى أحسن تقويم..!

دعها تتلألأ فوق كشف إنسانى جديد يزيد البشرية ثراء وغِنًى..

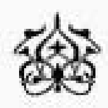
كشفٍ يتمثل فى إنسان جديد.. هو أنت بما بذلت من جُهد فى تطوير وجودك، واكتشاف حياتك..!!!

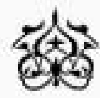
* * *



الوصية التاسعة

وَلِّ وَجهكَ شَطرَ الله، فَإنَّه حَقّ
وَضَعْ يَدَكَ فى يَدِه فإنه نعِمَ النَّصِير ..!!









يمر تفكرنا الدينى فى هذه العصور، بمرحلة تتسم بروح الانقلاب.

على أننى، إذْ أحدثك الآن عن الله، لا أريد أن أحتكم إلى التفكير الدينى وحده.

فالله سبحانه وتعالى، ليس موضوعَ الدين فحسب، بل هو موضوع العلم، والفلسفة، والأدب، والفن، وموضوع الحياة كلها..

كل الكائنات العليا فى هذا الكون الكبير، تدفعها قوى باطنة إلى استشراف الغيب، وتتبع الخيوط التى تهدى إلى السر الأكبر.. سر القوة العليا التى خَلقتْ عالمنا الفذ، وألهمته سُنته، وقوانينه، ونظامه المحكم الوثيق..

كل إنسان تناديه هذه الأسرار..

فمنا مَن يسير إليها مُتتبعًا خُطى العلماء..

ومنا مَن يسير متتبعًا خطى المرسلين والأنبياء..

ومنا مَن يرى العلم والدين، آيتين من آيات الله. يعلم بهما خلقه. ويهيئهم بوساطتهما لكشف المجهول، ومَشاهد الحقيقة جَهْرة وعلانية..

هناك إذن، مَن يُؤْثِرون فى هذه القضية التسليم والإذعان والإيمان التلقائى البسيط..

وهناك من يُؤْثِرون البحث، بما يتضمنه البحث من شك، ومحاولة واحتكام إلى البراهين.

وكثيراً ما نظن أن الفريق الثانى أقرب إلى الزيغ، وأدنى إلى الضلال..

وهذا خطأ كبير..

وإنه ليعنينى أن أستهل معك الحديث عن الله سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة.. حقيقة أنك فى عصر مختلف.. عصر لا تستطيع فيه أن تؤمن حتى تفهم.. عصر وُكِلَ فيه إلى العقل وحده سلطة منح "جواز المرور" لكل معتقد، ولكل إيمان..

فهل تتعرض قضية الإيمان بالله للخطر، بسبب تحكيم العقل..؟؟

أما أنا، فأقول: لا..

وعَبْرَ الصفحات المقبلة. سأتلمس الطريق إلى الله فى ظل العقل والبديهة..

واعلم - إذا كنت ستمضى معى - أن الله مُبارِكٌ هذا النَّهج فلا تخف أن تستعمل عقلك فى البحث عنه.

فهو سبحانه، حين دعا الناس إلى التعرف إليه - لم يقدم نفسه إليهم فى ألغاز وأساطير.. بل قدم حقيقته عن طريق ما يشاهدون من آثاره، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم فى الاهتداء إليه..

فعليهم أنفسهم أن يكتشفوا وجوده..

وسبيلهم لهذا - النظر، والتدبّر، وشَحْذ قُوَى العقل جميعًا. انظر هذه الآيات..

﴿أَوَ لَمْ يسَيروا فى الأرض، فَيَنظروا ..﴾

﴿قل سِيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلقَ..﴾

﴿مَن يرزقكم مِن السماء والأرض، أمَّن يملك السمعَ، والأبصارَ ومَن يُخرج الحىَّ من الميت، ويُخرج الميتَ من الحىّ، ومَن يُدبِّر الأمرَ..؟؟﴾

﴿أمَّن جعل الأرض قرارًا ، ؟ وجعلَ خِلالها أنهارًا ، ؟ وجعل لها رَواسىَ؟ وجعل بين البحرين حاجزًا..؟؟﴾

﴿أمَّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تُنبتوا شجَرها..؟﴾

﴿أوَلم يروا أنا نأتِى الأرض نَنْقُصُها من أطرافها..؟﴾

﴿وترى الجبال تحسبُها جامدة، وهى تَمُرّ مَرَّ السحاب، صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء..﴾

﴿واختلاف ألسنتكم، وألوانكم ﴾

* * *

ما معنى هذه التوجهات للناس؟..

معناه أن الإيمان تجربة، قبل أن يكون إذعانا.. ونظر عقلى: قبل أن يكون تَلقِّيا..!!

وهى دعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الكون ملاحظة عقلية؛ وعملية..

ولقد ذكرتُ فى كتابى "إنه الإنسان" كيف وكَلَ الله للإنسان مهمة اكتشاف إيمانه ببارئه حتى يجىء إيمانه وليد إحساسه وحاجته؛ ووسائله.

وكيف ترك أبا الأنبياء، وأبا الأديان "إبراهيم" عليه السلام يعانى

بَواكير التجربة وحده..

ولو شاء الله، لباَدأهُ الوحى، لكنه تركه يبحث؛ ويتأمل.

﴿فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبًا، قال هذا ربى.. فلما أفَلَ، قال: لا أحب الآفلين..

﴿فلما رأى القمر بازغًا، قال هذا ربى.. فلما أفَلَ قال لئِنْ لم يهدنى ربى، لأكونَنَّ من القوم الضالين..

﴿فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربى. هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون.. إنى وجَّهتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين..﴾

هذا "أبو الأنبياء" يسلك إلى الله طريق العقل، والنظر، والتأمل، مقلبًا وجهه فى السماء؛ مُمعِنًا بحواسه فى اجتلاء الغيب، مُتوسلاً فى نطاق نسبى؛ بنفس الطريقة التى يسلكها العلم اليوم؛ وهى وضع الفروض، ثم مناقشتها وفحصها..

أجل.. من غير أن يكون يومذاك علم بالمفهوم الحديث للعلم ـ ترك الله رائد رسله وأنبيائه يسير وفق قواعد العلم فى البحث عنه وكشف وجوده..

فالعلم يقوم على الفروض، لأنها تواجه العمليات التى تكشف عن الحقيقة..

ولكن الفروض كما يقول ـ جون ديوى ـ "ليس هناك حدود لمداها ولا لعمقها، فمنها فروض ذات مجال محدود تكنيكى. ومنها فروض تبلغ من السعة، اتساع الخبرة نفسها.."

يفترض "إبراهيم" أن الكوكب، هو الإله.. ويمضى مع هذا الفرض

يحلله، ويجربه، حتى إذا سقط الافتراض بين يديه عاجزاً عن إثبات الحقيقى الذى يسعى إليه، عدل عنه إلى فرض آخر.. وهو القمر.. ثم إلى فرض آخر، وهى الشمس لأنها أكبر، وأكثر نفعًا..

وإذْ يسقط هذا الفرض الأخير، يكون اختبار آخر يُنَمِّى نفسه داخل نفسه، فترى بصيرتُه ما لم ير بَصرُه، وهو اختبار عقلى أيضًا.. بيد أنه لا يعمل داخل نطاق محدود من العقل؛ بل داخل العقل كله وينتهى إلى نتيجة تقنعه:

ـ ما دامت كل هذه القوى تختفى وتغيب.. والله لا يمكن إلا أن يكون كمالاً مُطلقًا.. إذن فهذه ليست هى الله.. والله من وراء ذلك كله محيط..

﴿إنى وَجَّهْتُ وجهى للذى فطر السموات والأرضَ﴾..!!

* * *

حَاولْ إذن أن تهتدى إلى الله بعقلك؛ ولا تَخف الشك؛ ولا تخش الخطأ..

فالله يعلم مدى قصور العقل الإنسان؛ ومع هذا فقد ندب العقل لاجتلائه والتعرف إليه. فَلْتحترمْ وسائل هذا العقل؛ ولا تَضِقْ به إذا قال: كيف يكون ذلك..؟

ولماذا لا يكون كذلك..؟

لا تَضِقْ بما يلقاك من شك، فالشك طريق اليقين.

وقديمًا سأل أبو الأنبياء إبراهيم ربه أن يريه كيف يُحْيِى الموتى.

قال الله له: أوَلم تؤمن..؟؟

قال: بلىَ.. ولكن ليطمئن قلبى..!!

والله سبحانه يخبرنا عن تلك الأزمات النفسية العاتية التى كانت تُلِمّ برسله أنفسهم، فيقول سبحانه:

﴿حتى إذا استَيْئَس الرسل، وظَنُّوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا﴾..

تأمل جيداً هذه الآية :﴿ظنوا أنهم قد كُذبوا﴾..

فإنها تمنحك أملاً عريضًا باسمًا فى عون الله حين تبحث عنه مهما تعتورك الشكوك، وظنون النفس..

ولقد دعا الرسول أصحابه ألا يعبأوا بما يصادف بعضهم من شك قائلا لهم: "هذا مَحْضُ الإيمان.."!!

فالشك. إنما ينبئ بوجود يقين، يحاول اكتشاف نفسه..

بل إن الشك كثيرًا ما يُفجِّؤه زحام اليقين..!!

فدع عقلك، يُنزل زَوْرقه فى البحار المجهولة، ومادمتَ مخلِصًا فى رغبة الوصول إلى الحق.. فإن يدًا خفية، ستقوده وتحميه ـ هى يد الله..

وإن مَرافئ كثيرة؛ ستُومِضُ له بأنوارها الكاشفة.. هى مرافئ الله المبثوثة على شطآن المجهول..

اقترب.. لا تخف..

وتقدم.. لا تُجفِلْ..

إن الله معنا ..!!

* * *

هناك رواسب كثيرة، قد تسبب لك حيرة وقلقًا ، كلما حاولت أن تستشرف الله من نافذة العقل..

بيد أنك قادر على تنحية تلك الحيرة إذا ناقشت هذه الرواسب

الوجدانية، وردَدتَها إلى أصولها، وفَحصتَ هُويتها في ضوء التفكير السليم..

وأول هذه الرواسب: راسب الطفولة..

فحين كنتَ طفلاً، سمعتَ عن الله سبحانه وتعالى، أشياء كثيرة، وعرفت الله بأذنيك..

كنت تسمع نُعوتا لله، تختلط فيها الحقيقة بالخرافة، فلا تميز بينها، بل يَلْقفها وجدانك الغَضُّ الساذج، ويصوغ منها تصورُك الناشىء، وخيالُك الطفل، صورةً لله تستقر فى وجدانك وذهنك..

كانت هذه الصورة تستمِدُ معالمها مما يُلقى إلى السمع إلقاءً يجىء سَدِيدًا مرة، وغير سديد مرات، حيث تقوم علاقتك بالله على الخوف والإذعان..

بيد أنك تظلُّ طفلاً.. فذات يوم كَبِرتَ، ونما عقلك، ورَبَتْ معارفك، واشرأبَّتْ ثقافتك. ولم تعد الصورة القابعة فى وجدانك عن الله كافية لإقناعك..!!

ومن ثم، يغشاك تيار من القلق الذهنى..

لقد تصورتَ الله فى طفولتك: أشبه ما يكون بملك فخم عظيم..

وفهمتَ أن كل شىء فى الوجود تقع مسئوليته المباشرة على الله.

فالمرض، والفقر، والنجاح، والفشل.. حتى عثرة القدم فى الطريق قدَر من الله، وكَلِمةٌ سبقَتْ..

وفهمتَ أن الله يتربص بك عند الموت، فلا تكاد روحك تغادر جسدك حتى يتلقاها عذاب شديد. فزرعت فى نفسك عقدة الخوف والفزع من الله ـ ومن الموت الذى هو لقاء الله..!!

فلما كبرت، وطالعت، وتطلعت؛ أدرت خواطرك على تراث الطفولة هذا، فأنكرت أكثره..

فإذا كان الله كَمالاً مطلقًا، فلا يمكن إذن أن يكون هذا الملكَ الفخمَ المحفورة صورته على جدارن نفسك..

ولا يمكن أن يكون مسئولاً عن هذه الشرور التى تملأ الأرض..

ولا يمكن أن يكون لقاؤه على هذه الصورة من القسوة مهما تكن خطايانا، لأنه أعلم بنا من أنفسنا..

وأيضًا لا يمكن أن يكون القدَر الذى تلقتْ طفولتك بل وشبابك صورة مشوشة عنه ـ لا يمكن أن يكون كما يقال عنه، وراء كل حركة، لكل فرد، فى كل زمان ومكان..

وهنا يتنازعك موقفان عقليان..

موقف يدعوك إلى نبذ الصورة كلها دون أن تبحث عن بديلها الحق.. وهكذا، وبمنتهى السهولة تصدر حكمك عن الله ـ بأنه لا وجود له..!!

وفى نشوة مخيولة من نشوات الغرور، تقول لنفسك: لقد تفوقتُ على الضعف والتأخر، اللذين يسميهما الناس "إيمانًا" ولقد حللت المشكلة التى حيرت العالمين.. "!!!"

وموقف آخر، يدعوك إلى فحص الصورة كلها، وإخضاع ميراث الطفولة للفحص والتعلية ـ والتفكير من جديد فى قضية الإيمان..

وهذه الطريقة الثانية، هى اللائقة بإنسان حتى حين يخطىء أو تبطىء عنه الهداية، فلا يصلُ إلى شىء..

* * *

أما العامل الثانى من العوامل التى تجعل بيننا وبين الإيمان شُـقَّةً، وشقاقًا، فهو التقديس..

إن الإيمان تقديس لا ريب..

وأنت فى سن شبابك، وبعد شبابك ـ يبرز شـخصيتك مُحاوِلـةً فـرض نفسها، وتوسيع نفوذها.. ويتململ عقلك ثم ينهض قائمًا، تدفعـه غريـزة قوية إلى أن يسأل، ويناقش، ويعقب، ويعـارض، ويتبـدى لـه التقديس نوعًا من الذل والخضوع لا يطيقه..!!

* * *

وثمَّت عامل ثالث، هو أننا تَعودنا أن نسمع اسم الله مقرونًا بـالأمر والنهى..

فكل دعوة إلى الفضائل، وكل نهى عن الرذائل، إنما نَبَعَا ـ أول مـا نَبعا ـ من الله..

ونحن بنى آدم عالم يموج بالشهوات مَوْجًا. وكل قوة تحاول صدنا، والحد فى انطلاقات غرائزنا. لا تُقابَل منا بالارتياح على الأقل..

وما دمنا نفهم أن الأخلاق والفضائل مصدرها الله.. أى أن الله هو الذى وضع الشكائم لنا، فهو إذن المسئول عما نعانيه من تناقض ويبـل يجتاح علاقاتنا بهذه الأخلاقيات..

إذا استجبنا لها، مزقتنا الشهوة المكبوتة..

وإذا نكصْنا عنها، حطَّمنا عذاب الضمير، والخوف من عذاب الله.

* * *

وهناك عامل رابع يثبطنـا عـن الإيمـان أيضًـا.. ذلكـم هـو ارتبـاط الإيمان بالدين..

فالدين وإن لم يكن الصوت الأوحد الداعى إلى الله، إلا أنه أول الأصوات وأعلاها..

وإذا كان العلم، والفلسفة يمكن أن يدلاً على الله، فدلالتهم ضِمنية..

أما الدين فهذه وظيفته، وموضوعه. وهو يكدح فى هذا السبيل لا غير - سبيل الإيمان بالله، والدعوة إليه..

وإذْ قد تعرض الدين لأزمات كثيرة، وتطفلت عليه كثرةُ هائلة من الأكاذيب؛ والخرافات.. فقد أصيب الإيمان معه وصار كثيرون من الذين يرفضون الدين، يرفضون الإيمان أيضًا.

* * *

والعامل الأخير الذى أختتم به عوامل التثبيط عن الإيمان يتمثل فى فتوح العلم الهائلة، وغزوات العقل الظافرة..

لقد بهَر العلم الناس بما كشف من أسرار، وبما فَضَّ من مجهول، وبما اكتشف من قوانين..

أشبَع العلم كثيراً من حاجة الناس إلى استِكْناهِ القوة الخافية التى تحرك النظام الكونى العظيم..

وبينما كانوا يردُّون إلى عالَم الغيب كل ما يعجزون عن تفسيره - تقدم العلم، فأخذ فى وجدانهم مكان الغيب..!!

واتسعت الحياة اتساعًا لم يكن فى الحسبان.. ولم يعد لدَى أحد من سعة البال وسعة الوقت ما يسمح له بالاستغراق فى عبادة، أو فى تأمل ما وراء الطبيعة المحسوسة.. فمشاكل العيش تكاد تأخذهم حتى عن أنفسهم..

والآن، عليك أن تناقش هذه المثبطات التى سردناها، ليخلُص لك طريق الإيمان لاحبًا مستقيمًا..

فتقدَّم.. إن إنكار الله ليس من اليسر بالصورة التى تتوهمها، والتى يؤكدها لك أولئك الذين يزعمون أنهم عرَفوا كل شىء، وأحاطوا بكل شىء عِلمًا..!!

فإذا بدأت بالعامل الأول، تبين لك أن النموذج الذى تكوَّن فى طفولتك لله ليس هو الله.. بل والصورة التى تتخيلها لله فى شبابك، أو فى شيخوختك لن تكون هى الله..

إن الله "رب العالمين" .. وكفى..

إن كونًا عجيبًا يسير بهذه الدِّقَّة المتناهية فى الحكمة والاتِّساق لا يمكن أن يكون وراءه الصُّدفة، ولا الخَوَاء..

لا بدَّ من قوة حكيمة مدبِّرة..

هذه القوة هى ـ "الله رب العالمين" ..

ما لونه.. ما حجمه.. ما نشأته.. ما هويَّتُه..؟؟!!

ذاك أمر يعجز عن إدراكه جميع أجهزة "تحقيق الشخصية" فى العالم "!!"

وإصرارك على أن تعرف الله بهذا الأسلوب الساذج يدل على أن طفولتك لا تزال تقودك..

لقد سئل رسول الله عليه السلام: كيف رأيتَ ربك..؟

فأجاب قائلاً: "نور أنَّى أراه"..!!

ولقد وضع السلف الصالح معيارًا سديدًا فقالوا: "كُلُّ ما خطر ببالِك، فالله بخلاف ذلك" ..

فاعرف الله، كبيرًا لا تدركه الأبصار..

رحيمًا، لا يقسو..

حكيمًا، لا يضلُّ ولا ينسى..

أعطى كل شيء خلقه، وقانون وجوده.. وبقوانين الوجود هذه، وسنن الحياة والكون - تسير الأمور من غير أن يتحمل الله مسئولية مباشرة عن تفاصيلها..

فالله - مثلاً - سخّر الأرض والبحار والأنهار للناس جميعًا. وجعل منها رزقَهم، وعليها معاشهم وجعلها تسير وَفْق قوانين ثابتة تُخرج بها الأرض زرعها، وتمنح بها الأنهار ماءها، وتحمل بها البحار فُلْكَها..!!

فإذا اقتسم الناس الأرض قِسمةً جائرة، وامتلك واحد، آلاف الأفدنة، وعاش آخرون على الثّرى..

وإذا تنافست الدول فى امتلاك البحار، والسيطرة على منافذها، وبَغَى قويها على ضعيفها، فالمسئول هم الناس الذين لم يُحسنوا تقبُّل نعمة الله..

ولقاءُ الله خير على أية حال، وإذن فالموت الذى يهيىء لك هذا اللقاء، لا يمكن أن يكون عذابًا وبيلاً..

فأقل مستويات الكمال لله، لا بد أن تفوق أعلى مستويات خلقه فى الكمال..

ونحن نرى بين خلقه أناسًا تساموْا بالرحمة وبالفضل حتى إنهم ليحسنون إلى من يسئ إليهم، ويعطون الرداء، لمن حاول أن يأخذ منهم الثوب.. وتهون عليهم التضحية بكل عزيز فى سبيل ألاّ يبصروا عينًا تبكى بسببهم، أو جَفْنًا يرتعش خوفًا منهم..!!

أفيبلغ الناس الذين هم خلق الله، هذا المستوى من الحنان والرحمة.. ثم لا يكون الله أعلى شأنًا، وأرفرَ حَنانًا، وأغدقَ رحمة..؟؟

لقد وقف الرسول، وهو بَشر - يواجه يوم الفتح أعداءه الذين قاتلوه، وأخرجوه من داره وبلده، ومثّلوا في وحشية بجثة عمه، وعذبوا أهله وأصحابه، وجوّعوهم - وأنزلوا بهم كل صنوف البَغْي والاضطهاد..

وقف تِجاهَم يوم الفتح، ونَواصِيهم كلها بيده، فما زاد على أن حَنَى رأسه شكرًا لله، ثم رفعه ليقول للناس: "اذهبوا فأنتم الطُّلقاء" بل مضى يبالغ في تكريمهم حتى ينسيهم أنهم مهزومون..!

أفيفعل هذا بشَر، ثم تتوقع أنت أن الله هناك وراء قبرك يترقب مجيء روحك، لِيُصْلِيَها عذابًا وسعيرًا..؟؟!!

لقد خوَّفنا الدين حقًّا، وكان مضطرًا أن يفعل حتى يكبح الجموح، وينْهَهُ من ضراوة البغي..

أما رحمة الله، فهي الوعد الحق وهي الكلمة الأخيرة..

فاستقبل الله بهذا الفهم الذي هو حق لا عزاء..

عندئذ ترى الله بهجة الدنيا والآخرة..

وآنئذ لن يغيب عنك، ولن تبحث عنه؛ لأنك ستجده في كل ما حولك من حياة - في الزهرة الباسمة.. في النَّبْتِ الطالع.. في شعاع الشمس.. في قطرات الغيث.. في السماء وفي الأرض..

ينتظرك على شوق.. ويقول في حديثه القدسي: "من مَشى إليَّ شبرًا.. مشيتُ إليه ذِراعًا.. ومن مشى إلي ذراعًا مشيت إليه باعًا.. ومن أتاني يمشي أتيته هَرْولة.."!!

ستعرفه كما ينبغي أن يُعرَف - رحيمًا؛ لا حدود لرحمته. وَدُودًا لا

منتهى لمودته.. باراً لا يَغِيض بِرُه.. هو الحنّان الجواد القوىّ.. المتعال..!!!

وستأنَسُ به روحك وعقلك.. وستصبح من فَرْط النشوة..

أهذا هو الله..؟؟ تبارك الله إذن.. ولْتتقدّس أسماؤه..

ولْيتَبارك فى عُلاه..!!

وستُحِسُ أنك تسير فى صحبة رَبّ كبير - يبارك قوّتك، ويرحم ضعفك.. يشجعك على فضائلك، ويشفق عليك من رذائلك..

وفى كل حال، تظلُّ يمينه المباركة مبسوطة إليك، تدعوك للنهوض، ويناديك: أقبل؛ ولا تخف، إنك آمن.. انهض ولا تتردَّدْ، إنى معك..

لا يُرَوِّعكَ ضعف فقوتى سَندُ لك..

لا يَحْزُنْكَ تخلُفك، فقد تسبق العرجاء..

لا تَقنط من رحمتى، فرحمتى وسِعَت كل شىء..!!!

* * *

وإذا ناقشتَ العامل الثانى من عوامل التثبيط، وهو ضِيقك بالتقديس، ورغبتك فى أن يتحرك وجودك فى جهاته الأربع؛ ويمارس عقلك حقه فى اختيار أحكامه.. فاعلم أن هذا، هو ما يريده الله منك..

وإذا كنتَ تمتلئ بهجة وحُبوراً، يوم ترى أطفالك الصغار يتصرفون كأنهم رجال..

فاعلم أن الله سبحانه يرضى ويُسَرُّ؛ حين يرى عباده، يتصرفون كقِدِّيسين..

ولقد دعانا لهذا فقال؛ ﴿كونوا ربّانِيِّين﴾..

ويخبرنا الدين كله أن الله أمر الملائكة المقربين بالسجود لآدم

الذى هو رمز النوع الإنسانى وعنوانه..

الملائكة الذين يسجدون لله.. يسجدون بأمر الله للإنسان..!!

أىُّ مغزىً باهر لهذا التكريم؟!

إن تقديسك الله لا يعنى أنك نُطفة عمياء..

وإذا كان بعض الذين أنْحَلُوا أنفسهم أوضاعًا دينية خاصة عَبْرَ التاريخ، قد غالوا فى تقديس أنفسهم، فالله ليس كذلك ولا كذلك رسُله الصادقون، وعباده الصالحون..

* * *

أما ثالث المثبطات، وهو ضيقنا بالأمر والنهى.. واعتبار الله مسئولا عن قيودنا الأخلاقية..

فاعلم ـ أولا ـ أن الحياة الإنسانية حين وَعَتْ نفسها، أيقنت أنها لا تستطيع الاستمرار بلا أخلاق..

فهى ـ مثلاً ـ لكى تنمو وتطرِّد، لا بد أن تمجد العدل، وتضع الظلم.. تمجد الأمانة، وتسقط الخيانة.. تحترم الصدق، وتمتهن الكذب.. وتقاوم القتل، والسرقة، والفاحشة..

والقانون الخلقى، ضرورة الحياة.

والكفر بالله، لا يُخْلى من تبعات هذا القانون ومسئولياته..

وفى بعض البيئات التى نَحَّت الإيمان بالله جانبا، لا يزال القانون الأخلاقى سائدًا.. والأوامر والنواهى على أشدِّها..

ذلك أن القانون الخلقى، يفرض نفسه فى كل زمان ومكان على المؤمنين بالله، وعلى غير المؤمنين..

فإنكار وجود الله، لن ينجيك من العقاب الذى سينزله بك مجتمعك

إذا خُنتَ، أو سَرقتَ، أو انتهكتَ حرمة ثابتة.

وثانيًا - فالقانون الأخلاقى، سواء جاء من الله أم من الناس. فهو حماية لك أنت، وسعادة لك أنت - ومصدره جدير بشكرك، خَلِيقٌ بطاعتك..

لأنه لو لم يكن القتل - مثلاً - محظورًا، لأصبحتْ حياتك فى مهب كل يدٍ طائشة..

ولو لم تكن السرقة حرامًا، لصار معاشك نهبًا لكل يدٍ خالِسَةٍ أو ناهبة..

ولو لم تكن العفة والفضيلة يرعاها الناس، لاضطربتْ حياتك وحياتهم اضطرابًا كبيرًا..

وهكذا، يمثل القانون الأخلاقى، بكل فضائله التى أجمعت البشرية على احترامها - يمثل سِياجًا يحميك، ويَزُود عنك..

فإذا كان مِن الله، أو من الناس، فهو نعمة كبرى - وبالشكر تبقى النعم وتدوم..

وكل تزمُّت من الناس فى فهم أخلاقياتهم، وكل تنطُّع وجمود بصاحبان تطبيق قانونهم الأخلاقى - إنما تقع مسئوليته عليهم لا على الأخلاق، ولا على مصدر الأخلاق..

* * *

فإذا واجهت المثبِّط الأخير، وهو اختلاط الإيمان بالدين، اختلاطًا؛ عَرَّضهما معًا للتحريف، والمبالغة، والزيغ. وعَرَّضك بالتالى لأن تضيق بالإيمان، وبالدين.. فإنك واجد الحقيقة تسارع إليك لتصحح لك الفهم، وتكشف لك مزايا الإيمان والدين..

لقد سبق الدين إلى الهتاف بوجود الله، ودعوة الناس إلى الإيمان به، كي يبلغوا بهذا الإيمان مستوًى لائقًا من الخير ورِفعة النفس..

ولكن الدين نفسه ابتُلي بطبعَاتٍ أساءت استغلاله، كما ابتُلِيَ بإضافات وخرافات تسلّلت إليه، وأخذت مكانها بين شعائره ونصوصه، كما ابتلي بسوء الفهم من الأجيال التي بَعُدَتْ الشُقة بينها وبين عصور الرسالة الأولى، سواء في ذلك المسيحية، والإسلام، والأديان الأخرى..

لكن الذي يفهم حقيقة الدين، ويَستجلي روحه ولُبابَه، لا يراه إلا خيرًا.. وإلا يدًا طُولَى أسْدَت للبشرية في مراحل تطورها وتقدمها أجل الخدمات وأسماها..!!

أجل، عندما نقترب من روح الدين، لا من شكله الخارجي وحده ـ يَبْهَرُنا النسق الموضوعي لرسالته ودعوته.. ونرى فيه قوة حافزة أكثر ما يكون الحفز، مُلهمة أبدع ما يكون الإلهام..

* فدعوته للإيمان بإله واحد، لايُحابِي، ولا يظلم ـ إنما هي تحرير الإنسان من أرباب الأرض الذين طالما ساموا الناس خَسْفًا ورهَقا؛ وملأوا حياتهم فسادًا؛ وبغيًا.. وإعلاناً لسيادة الرجل العادي..

* وهُتافه بخلود الروح؛ أعظم تكريم للإنسان، وأبهى تمجيد له.ز إذ فحْوى هذا الخلود، أن الإنسان ليس مخلوقا عاديا.. بل إن له في هذا الكون دَوْرًا مناسبًا لخلوده..

* وإعلان الدين أن الإنسان خليفة الله في الأرض، ارتفاع بالإنسان إلى مستوى قريب من الإله ذاته، وإرهاص بأن هذا الذي نفخ الله فيه من روحه، سيذهب صاعدًا حتى يبلغ في معراج الارتقاء ما لا يخطر

يبال..!!

أى تفاؤل بمصير الإنسان، يفوق هذا التفاؤل..؟؟ وأى تمجيد له، يُسَامِتُ هذا التمجيد..؟؟

* ودعوة الدين إلى الإيمان بالغيب واحترامه، تحطيم لقوى الحجْر على المستقبل، ودفع بالعزم البشرى إلى الأمام، وتشجيع على اقتحام المجهول، وكشف ما وراءه من أسرار كبرى..

أجل، إن معنى الإيمان بالغيب، أن وراء ما نشاهد ونُحس، عوالم لا تنتهى أسرارها وعجائبها، وعلينا أن نؤمن بهذا الغيب، كواقع موجود.. وهذا الإيمان يقتضى أن نفَضَّ مغاليقه، والسير نحوه واثقين.. وكل نصر يحرزه العلم اليوم، وكل فتح جديد يهمّ به، لا يلقَى من الدين الحق إلا التشجيع، والحضّ..

* فإذا سار العلم مع "دَارْوِن" فى رحلته، محاولاً اكتشاف أصل الإنسان، ثم نادى بتطوير الإنسان من كائنات أدنى.. فسيحمد الدين هذا الصنيع، لأنه من قرون بعيدة أبلغَ الناسَ رغبة الله فى أن يحاولوا بأنفسهم اكتشاف مبدأ نشأتهم، ونشأة كل شىء، فقال القرآن فى بعض آياته: ﴿قل سيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾..!!

* وإذا حاول العلم أن يغزو الفضاء، ويتخذ سبيله إلى القمر مَهْدًا فيسجد الدين يباركه ويهيب به قائلاً: ﴿الله الذى سخّر لكم السموات والأرض، وسخر لكم الشمس والقمر﴾..

* وإذا أراد العلم أن يسعى لإطالة متوسط العمر الإنسانى للفرد: بل إذا حاول أن يرد الموتى إلى الحياة..؟ فإن الدين الحق لن يقول له كفرت، كما يحسب الجاهلون.. بل سيباركه كثيرًا ؛ لأن الدين مؤمن

بخلود الإنسان، وهو لا يرى الموت إلا قنطرة إلى حياة أخرى. وكما ننام ونستيقظ، فنحن كذلك نموت ونُبعث!!

أجل، سيصفق الدين للعلم إذا ردّ للموتى الحياة، لأن رسولاً من رسل الله فعل هذا، فأخبرنا الدين أن المسيح أحيا الموتى بإذن الله...!!

* وإذا حاول العلم أن يبعث الحياة، فى المادة غير الحية وهى محاولة تبدو عجيبة، أشد العجب، فإن الدين يشجعه، ويقول له تقدم، فإن إنسانًا بمفرده صنع هذا..

ذلكم هو المسيح حيث يحكى القرآن الكريم عنه هذا فيقول:

﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ ..!!

* * *

الدين فى حقيقته، قوة تدفعنا إلى الإمام.. وإذا وُجدَ بين نصوص الدين - أى دين - نص لا يزكى أغراض التقدم الإنسانى الرشيد، فليس معناه أن الدين ضد التقدم - وإنما معناه أن هذا النص، أو هذا الموقف، موقوت بزمانه..

والمتدين بحق هو الذى يدرك أن شعائر الدين لا تتمثل فى شعائر دينه وحدها.. وإنما تتمثل مع هذا، أو قبل هذا فى إدراك روح الدين. والعمل وَفق هذا الروح..

وروح الدين كما قلنا، تحقيق أقصى أغراض التقدم الإنسانى وبلوغ الكمال الميسور للبشر فى حياتهم، وفى أنفسهم..

وكل عمل صالح فى هذا السبيل، عبادة، وصلاة.

وإذا أخذتَ الدين وفهمته على هذه الصورة، التى هى صورته الحقه، فلن تحمله أوزار الأباطيل التى تطفلّتْ عليه، وسترتفع فى فؤادك كلمته، وتتجلى قيمته.. وبالتالى، ترتفع كلمة الإيمان، وتتجلى قيمة الإيمان..!!

* * *

إن الإيمان بالله فى حقيقته يمثل آفاق التفكير الإنسانى، وأسمى حوافز التقدم الانطلاق.

والإيمان يقول للإنسان: ﴿وأنَّ إلى ربك المنتهى﴾. إلى ربنا المنتهى..؟؟

إذن فالله هناك - فى أقصى الشوط الذى قُدِّرَ للبشرية أن تسيره..

وإذن، فلكى نبلغ هذا المنتهى، علينا أن نقطع الطريق كلها مهما تكن طويلة، ويابسة..

ولكى نشاهد السر الأكبر، وهو "الله" علينا أن نمر بأسرار كثيرة، ونفضُّها.!!

فالسير إلى الله، سير إلى كل الحقائق التى تنتظرنا لنفض مغاليقها ونكشف كُنهها.

من أجل هذا، كان العلم فى حقيقته دِينًا..

وهذا العالم العاكِفُ على مُختَبره، ليس أدنى منزلة من العابد المتَبتِّل فى مِحرَابه..!!

* * *

بانتهائنا من مناقشة هذه الرواسب التى تجعل الإيمان ثقيلا على النفس، بعيدًا عن العقل، نعود إلى العقل ذاته لنرى هل هو مع الإيمان

بالله أو ضد الإيمان بالله..

وأنت تعلم، أن ثمَّت فارقًا بين العقل، والعلم.. غير أننا هنا نعنى بالعقل ـ الحركة العقلية ـ كلها بما فيها العلم نفسه..

والآن نسأل: هل نَفى العقلُ وجود الله..؟؟

أنا لا أكتب بحثًا فلسفيًا، أو عظة دينية.. إنما نحاول معًا اجتلاء معالم الإيمان فى أقرب نقاطه إلى الوضوح واليُسْر..

ونجيب على سؤالنا فنقول: إن العقل لا ينفى وجود الله، إذا أخذنا العقل بمفهومه الصحيح.

إن أحكام العلم تستمد صدقها من حواسنا، ومن التجربة العلمية التى نجريها فى معاملنا.

والأحكام التى تجيئنا عن هذا الطريق، تكون موضع يقيننا، ونسميها فى إجلال.. المعرفة..

وأهم مميزات هذه "المعرفة" أنها ضد الأحكام النهائية..

تذكَّرْ هذا جيداً..

فإذا جاءنا من يُصدر فى قضية الإيمان حكمًا نهائيًا فيقول: ليس هناك إله.؛ فإن العلم نفسه، يقول له: هذا غُرور..!! لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفتَ الحقيقة كلها.. وعرفت جميع المجهول الذى سيظل سكان هذا الكوكب ملايين السنين يكشفونه جزءًا، فجزءًا..

وسيقول له العلم أيضًا: إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة.. والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفى وجود الله..!!

فالمعرفة بمفهومها العلمى، تتورع عن نفى وجود الله..

لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبتُ وجوده.. فواجبه ألا يجحد إلا ما يثبت نفيُه..

فمتى أثبت العلمُ نفى الله..؟؟

إننا نحتكم إلى العلم بتفكيره التجربى الواقعى..

وبالطريقة التى أثبت بها حركة الأرض، وتحوُلَ المادة، عليه أن يثبت نفي وجود الله..

وإذا لم يفعل، فلا أقلَّ من أن نحترم دومًا ذلك الهاتف الأبدى الذى لا يفتأ منذ وجد الإنسان على الأرض، يصيح بنا. هناك إله..

وهذا الهاتف نفسه، حقيقة قادمة من العقل ومن المعرفة بأصدق ما للعقل وما للمعرفة من دلالة..

فالعقل الإنسانى، ليس هذا الجزء الذى نفكر به ونبحث، والذى يطل على الكون من نوافذ حَواسّنا الخمس..

هذا جزء من عقلنا الإنسانى لا غير - وثمة لهذا العقل مناطق أخرى تكشَّفتْ لبعض الناس الأفذاذ، وبصرُوا بها ما لا تُبصر الكافة..

هناك مستويات أخرى للتجربة - غير هذا المستوى الذى وصلنا إليه والذى نباشره فى معاملنا - وهى تعطى حَدْسًا صادقًا، كثيراً ما كان بمثابة الإشارات الضوئية التى أضاءت لتجارب العلم طريقها..

انظر..!!

منذ ألف سنة كان هناك أفراد، شارَفُوا هذه المستويات الباطنة من التجربة العقلية، فنادوا بحقائق عُدَّتْ فى أعين معاصريهم خرافة ووهمًا..

قال "أنَا كْسَاجُوراس": إن القمر أرض فيها جبال ووديان، وإن

الشمس والكواكب، أجرام نارية مُتَكوّرة.. فنفاه أهل أثينا.

وبعد ألفين وأربعمائة عام اكتشفنا صدقه..!!

وفى ذلك الزمان البعيد أيضًا قال "دِيمقْرِيطِس": إن هذه الذرات ليست هباءً.. ولكنها طاقات هائلة ـ وفى كل ذرة شمس كشمسنا هذه..

وبدا فى أعين الناس مُخرِّفًا.. ولكن بعد ألفين وأربعمائة عام أيضًا اكتشف العلم صدقه.. تُرى بأى أسلوب أدرك هذان الرجلان، هاتين الحقيقتين؟؟.

بالحواسِّ الخمس..؟؟

إن الحواس الخمس، لا تستطيع وحدها اكتشاف ما فى الذرة من هول، وطاقة..

أم التجربة العلمية داخل المعمل..؟؟

لم تكن لهم يومئذ القدرة على تجربة المعمل.. ولم يثبت أنهم قالوا ما قالوا على ضوء تجارب أجروها فى معامل مَشِيدَة.. ولو كانت تجربة علمية مُشاهدَة، لما أنكرها الناس، واتهموا أصحابها بالإلحاد، وطاردوهم خارج الديار..

إذن هناك عيون أخرى للعقل تتفتح فى بعض العقول المهيأة، فتطالع المجهول، كما يطالعه المعمل اليوم..

وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تُتاحُ لكل الناس، بيد أنها تعطى أحكامًا صادقة صدق التجربة العلمية نفسها..!!

وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع ناس منا، أن يُعاينوا حقيقة الإيمان، ويهتفوا بوجود الله..

فلماذا لا نصدقهم..؟؟

ولماذا نحاول أن نقيس الله بنفس الموازين التى نقيس بها أنفسنا..

لماذا نحاول قياس حرارة الشمس بـ "ترمومتر عادى"..؟!

إن فى حياة كل فرد إنسانى تجارب كثيرة يحس من خلالها وجود الله، حتى لكأنه يراه..

ولكنّ هذه التجارب العابرة، والأحاسيس الخافتة، تدور فى المستوى العادى لشعورنا وتفكيرنا..

بَيد أن رَعيلاً عظيمًا من البشر عانوا التجربة فى مستواها الأعلى، وتحدَّثَ الله إليهم من خِلالها..

أولئك هم المرسَلون والأنبياء والهُداة..

فهل من حقنا أن نفرض تصديقهم، وننتظر حتى نرى ما رأوا، وحتى يتحدث الله إلينا مثلما تحدث إليهم..؟!!

إن أمورنا لا تسير على هذا النحو أبدًا..

فنحن لم نر الأشعة (تحت الحمراء)، ومع هذا، نؤمن بوجودها لأن أفرادًا منا اكتشفوها وأخبرونا بوجودها..!!

وأنت لم تفجِّر الذرّة.. ولكنك تؤمن بكل أخبارها، لأن أفرادًا من العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها..

وأنت لا تحس أدنى إحساس أن الأرض تدور، ومع ذلك تؤمن إيمانًا مطلقًا بدورانها، لأن العلم قرر دورانها..

وأنت لم تر الزهرة، وعطارد، والمريخ.. بل ولا المجموعات الشمسية الأخرى التى تعتبر مجموعتنا الشمسية كلها بالنسبة إليها برتقالة صغيرة.. ومع هذا فأنت تؤمن بوجودها لأن غيرك ممن تثق بهم رآها من وراء عدسات المراصد..

وأنت لم تقس سرعة الضوء، ومع هذا تؤمن بأنه يسير بسرعة "١٨٦٠٠٠" ميل، فى الثانية الواحدة..

فلماذا تصدق كل ذلك، وأنت لم تكتشف صدقه بنفسك، إنما اكتشفه لك آخرون..؟؟

قد تقول: إن الأمر مختلف، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشياء إذا أخذت مكانك فى أى معمل، أو مرصد.؟

وهذا حق، لكن ليس فى الأمر خلاف، فأنت أيضًا تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله. وإذا أخذت مكانك فى معاملهم ومراصدهم..!!

ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر، نوع يستطيع كل إنسان أن يمتكله إذا جَلا رُوحَه وأيقظ كل قُوى نفسه الفاضلة واكتشف المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته..

إن الإيمان الدينى، كالإيمان العلمى ـ كل منهما نوعان:

إيمان رؤية.. وإيمان تصديق أو مُحاكاة..

فإيمان الرؤية فى العلم، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا بأنفسهم..

وإيمان التصديق فى العلم، هو إيمان ملايين البشر الذين لم يمارسوا التجربة بأنفسهم، لكنهم صدقوها..

كذلك إيمان الرؤية فى الدين، هو إيمان المرسَلين، والهُداة الذين عاينوا وشاهدوا، وذاقوا..

وإيمان التصديق فى الدين، هو إيمان الكافَّة..

فإذا رضِيتَ أن تؤمن بحقائق العلم، إيمانَ مُصدِّق، لا غير، فلِمَ لا

تؤمن بالله إيمانَ مُصدِّق أيضًا..؟!

هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله إيمان رؤية، ويقين ومباشرة..؟؟

حسن هذا..

فاصنع إذن ما يجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيمانًا مباشرا..

مارِس تجربة الإيمان بنفسك.. هَيِّئْ لها قلبك ووعيك، وابذل جهودًا مثابرة.. وسوف يتجلى لك الله، كما تجلى لغيرك.

* * *

إن آلاف العصور والأحقاب التى عاشتها البشرية فوق هذه الأرض.. شهدت باستمرار حنينًا دائبًا من الناس، وتطلُّعًا مستمرًا، ومُحاولات كادحة، للاتصال بالله..

إن فى كل فرد منا، وفى نوعنا الإنسانى كله نُزوعًا يذكِّرنا دائمًا بأن لنا لنا خالقًا وبارئًا ومنشئًا..

أوَ لا يدل هذا النزوع على شىء..؟؟

أوَ لا يدل تصميم الناس مُذْ وجُدوا على أن هناك قوة عُليا، عليهم أن يبحثوا عنها، ويشدُّوا رِحالهم إليها.. ألا يدل هذا على شىء..؟؟

سيقال لك، لقد ظل الناس منذ وجدوا مصممين على أن الأرض مركز الكون حتى جاء يوم تخلَّوا فيه عن زعمهم هذا..

أجل.. ولكنهم تخلوا عن زعمهم، لأن يقينًا من صنع عقولهم كشف لهم الحق، وعرفوا به حقيقة وضع الأرض.

فهل قدَّم العلم يقينًا مُماثِلاً. يدحَضُ إيمانهم بالله..؟!

كلا.. بل إن العلم كلما أمعن فى فتوحاته؛ ازداد انبهارًا. وازداد تواضعًا، وازداد إيمانًا بأن ما يجهله أكثر مما يعلمه. وأن الأسرار الكبرى التى تتكشف له أكبر من أن تكون تلقائية النشأة، عفويَّة المسير..!!

وبعض العلماء الذين تعجلوا الحكم، لم يزيدوا على أن أخذوا كل الصفات المنسوبة لله، ونسبوها للمادة..!!

فهم لا يؤمنون بالصدفة كمحرك للكون..

وهم يرون فى الدقة الفذة المعجزة التى يسير بها الكون ذكاء، وحكمة، ومقدرة..

هذا الفضاء المملوء بالمجموعات الشمسية، كُلٌّ فى فلكٍ يسبحون!!

وهذه الأرض التى انفصلت من الشمس قطعة لهب تتوهج.. ثم إذا هى تدور حول نفسها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة كل عام..

وإذا من هذه الدورات؛ يكون ليل، ونهار، ويكون صيف وشتاء، وربيع، وخريف..

ثم هى، ينفصل منها جزء آخر؛ يدور حولها فى تماسُكٍ ومثابرة، ليصير قمرًا لها..

لماذا وكيف تم هذا التوافق الهندسى الرياضى..؟؟

وأية قوة وراءه..؟؟

إننا نبصر جهاز الراديو، فندرك بداهة أنه تصميم قوة عاقلة ـ الإنسان..

فهذا الهواء، هذا الأثير.. هذه الموجات الكهربية التى تنقل

الصوت، أليس لها هى الأخرى مُصَمِّم..؟؟

هذا الكون.. هذا الإنسان المعجز وحده.. أليس له مُصَمِّم..؟!

يقولون: المادة.. حسن، فهل تصنع المادة كل هذا خبط عشواء أم أن معها بصيرتها وقدرتها..؟؟

لماذا إذن، يَسهُلُ علينا الإيمان بمادة علمية قادرة، ويصعب علينا الإيمان بإله عليم قادر..؟!!

لماذا نسيغ القول بأن المادة خلَقت نفسها ووضعت قوانينها التى تُذهلنا حكمتها ودقتها..

ثم لا نسيغ الإيمان بوجود قوة أخرى موجودة بذاتها..؟!

لماذا تهضم عقولنا هذا. وترفض ذاك..؟؟!

الحق أن الفاصل بين الإيمان والإنكار، فاصل وهمى..

والحق أن الذين يعطون المادة كل هذا السلطان، لم يغيروا من الحقيقة إلا اسمها..!!

إنهم نقلوا صفات الله إلى "المادة".. وهذا كل ما فعلوا..!!

التمِس أنت طريقك إلى الله، وآمن بالله، فإنه حق..

لا تحسبن الإيمان "رجعية وتخلفًا"..

فالرجعية، هى الإيمان بالخرافات التى تطفلت على الإيمان الحق، وعلى الدين الخالص عبر القرون..

أما الإيمان فى حقيقته؛ ففوز..

وأما الدين فى روحه؛ فهداية..

لا تَخَلْنى قدِّيساً، أو داعيًا كرَّس حياته لدعوة الإيمان والدين.. أبدًا. أنا مجرد إنسان، يحب الناس كثيرًا ويرجو لهم الخير جميعًا..

وحين يلمح طريقًا يحسبها مُفضية إلى خير فإنه يشعر بغبطة دافقة إذ يدل على هذه السبيل كل من يلقاه..!!

وفى تجارب حياتى، وحيوات الآخرين، التقيتُ بما ملأ روعى يقينًا بأن لنا إلهًا كبيرًا..

وهذه التجارب ليست هى التى تخلُق الإيمان بالله ـ ولكنها توقظ حقيقة الفطرية الكامنة فى كل منا، والتى فطر الله الناس عليها..

من أجل هذا، فأنا أدعوك إلى خيرٍ جزيل، حين أقول لك، وَلِّ وجهك شَطر الله

* * *

إن الإيمان بالله، سِمَةٌ من سمات الامتياز العقلى، والاستقامة الفكرية.. والإيمان بالله، سمة من سمات الاستنارة، وسعة الأفق..

ذلك أن الإنسان المثقف المستنير، لا يرحِّب بالأحكام التى تحجز على مستقبل الحقيقة.. وهو يؤمن بالغيب، والغيب فى التحليل النهائى له، هو كل ما لم يتكشف لنا من "الكُلِّىِّ" بعد..

والله الذى تخفُق به مشاعرنا وضمائرنا منذ وجُدنا على هذه الأرض لا أقل من أن يكون جزءًا من ذلك الغيب..

فإذا أردت أن تُنَحِّى وجوده بحركة من أصبعك.. مهملا بهذا حق الغيب فى أن تحترمه حتى يتكشف لك. فإنك بهذا تدل على حاجتك إلى الاستنارة والفهم، واستقامة التفكير..!!

والإيمان بالله، ملاذ.. ولا أقول عزاء..

وأكثر الناس جبروتًا وقوة، تمر به تلك الأوقات التى يفزع فيها إلى الله، فيجد الأمن والراحة من آفات نفسه، ومخاوف حياته..

فإذا جعلت "خَطُّ الطُّول" لحياتك، هو الإيمان المزدهر بالله، فإنك مهما تستجب للخطأ، وللضعف، ستظل محتفظًا برباطة جأشك، وسلامة تقديرك، لأنك موصول الأسباب بالقوىِّ الأعلى، ولأن يده الحانية التى تتبعك من غير أن تراها، ستُمسك بناصيتك فى الوقت المناسب، وتدفع عنك ما يتربص بك من سوء وشر..!!

إن جميع الهُداة الذين دعونا لكى نؤمن بالله، وألحُّوا فى دعائهم لم يكونوا يعملون لصالح الله، بل لمنفعة البشر، فالله سبحانه لا يزيد بإيمان الناس قوة، ولا يلحقه من جحودهم وَهْن..

أرأيت، لو اجتمع أهل الأرض جميعًا، وأنكروا وجود الشمس ـ أيضرُّ الشمس إنكارهم هذا..؟؟

كلا.. وستظل هى تبتسم لهم مُرسلة نعماءها وضياءها..!!

ولكن، لو أن ناسًا من الناس، قاطعوا الشمس، وحرموا أنفسهم حرمانًا كاملاً من التعرض لضوئها وأشعتها، ودفئها وقضوا أعمارهم كلها فى سراديب غائرة..

أليسوا بعملهم هذا يُلْحِقوا بأنفسهم ـ لا بالشمس ـ أفدح الكوارث..؟!

كذلك الذين يحرمون أنفسهم نعمة الإيمان بالله، ويحرمونها بالتالى مُعطيات هذا الإيمان، ويغلقون النوافذ التى تهب الإيمان منها بُشرًا ورحمة، ويعزلون وجودهم عن مصدر القوى والحياة.!

ـ الإيمان بالله طاقة يأخذ منها المؤمن ما يشاء، لما يشاء.

وهذه الطاقة لا تمنح القوة مجرد القوة.. بل هى تمنح القوة العادلة.. وهذا خير ما يدركه إنسان حى..

أجل، القوة العادلة، هى ما يُفيئه الإيمان بالله، أوَّلَ ما يُفِىء..

لأن الطيش والبغى، يجيئان ثمرة خراب داخلى، تعانيه نفس الطائش الباغى.. أو ثمرة غرور يزجيه سوء تقدير لنفسه ولحقيقته..

والإيمان ينفى هذا عن النفس الرشيدة المؤمنة، كما ينفى الكِيرُ خبَثَ الحديد.. وذلك بما يملأ به الأفئدة أمنًا وثقة، وبما يقتضيه من منهاج للسلوك وللحياة صادق وأمين..

فالإيمان بالله، ليس مجرد تصديق نفسى.. بل هو قوة دافعة لحياتك كى تسير وفق القيم المثلى التى تحقق لجنسنا البشرى سعادته وتفوقه..

والإيمان بالله، لا يرفع من مستوى حياتك الشخصية وحدها بل هو يرفع من مستوى الحياة كلها..

لأن الإيمان ـ واذكر دائمًا أننا نعنى إيمان الحقيقة، لا إيمان الخرافة..

أقول: لأن الإيمان يجعل من الحياة كلها عائلة واحدة كبرى يرعاها ربها وبارئها..

ويصنع من الحياة الإنسانية بصفة خاصة، قلبًا واحدًا يؤدى عمله فى وحدة، واتِّساق..

فالإنسان والحياة، غاية من غايات الإيمان، بل من أكثر غاياته أهمية وجلالاً..

فالإنسان، خليفة الله..!!

والحياة؛ بُستان الله..!!

وواجب كل فرد أن يعمل مع الله فى بستانه حتى يظل ناميًا مزدهرًا ـ وأن يبذل من نفسه حتى يحقق نوعُه الإنسانى كل ما يقضيه مستوى

الخلافة عن الله من تفوق واكتمال..

- والإيمان بالله يوسِّع نطاق وجودنا بما يُوحيه من ثقة.. ويوطد دعائم آمالنا فى المستقبل بما يهبه من تفاؤل..

فالإيمان بالله سبحانه، يعنى التفاؤل والتهلل، لأن اليأس وليد العجز وتجرُّع الهزيمة..

أما المؤمن الذى يستمد من الله عونًا دائمًا، فهو أبعد شأوًا من أن يُكَبِّل العجز ساقيه.. وهو حين تقع به هزيمة، لا يحسّ مرارتها لأنه لا يتجرّعُهَا ..

ومن ثَمَّ فهو متفائل دائمًا، ينفر من اليأس، لأن الإيمان يرى اليأس كفرًا.. ولأن كلمة الله تناديه دومًا: ﴿إنه لا ييأسُ من روح الله إلا القوم الكافرون﴾..!!

إننا لا ندرك جمال الحياة وسُموها إلا فى تلك الأوقات التى نحس فيها أننا نملؤ الزمان والمكان - وأننا مسيطرون تمامًا على أنفسنا، وعلى حياتنا، وعلى مصايرنا.. وأننا أحرار تمامًا فى اختيار مباهجنا وفضائلنا وأخطائنا..

ومن عَجبٍ، أنه لا شىء يتيح لنا كل ذلك مثلما يتيحه الإيمان بالله حسب المفهوم الصحيح لهذا الإيمان..

نحن نحسب الإيمان قيدا وغُلاً ..

وهو ليس كذلك أبداً..

إنما الإيمان إطار تتحرك داخله حياتنا دون أن نحس بضيق أو انكماش - إنه إطار واسع، لا حدود له، لأن الله الذى هو موضوع هذا الإيمان، لا حدود تحدّه، ولا تُخومَ هناك تقف عندها رحمته،

وقدرته، وهِباتُه..!!

* * *

وكما قلتُ لك من قبل: اختر حياتك، وانسج بيديك بُردَتها..
أقول لك هنا: اختر إيمانك، واجمع بنفسك وثائقه..

❊ ❊ ❊

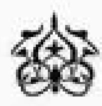


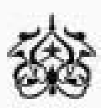
وطِّدْ مسئوليتك بالحرية..

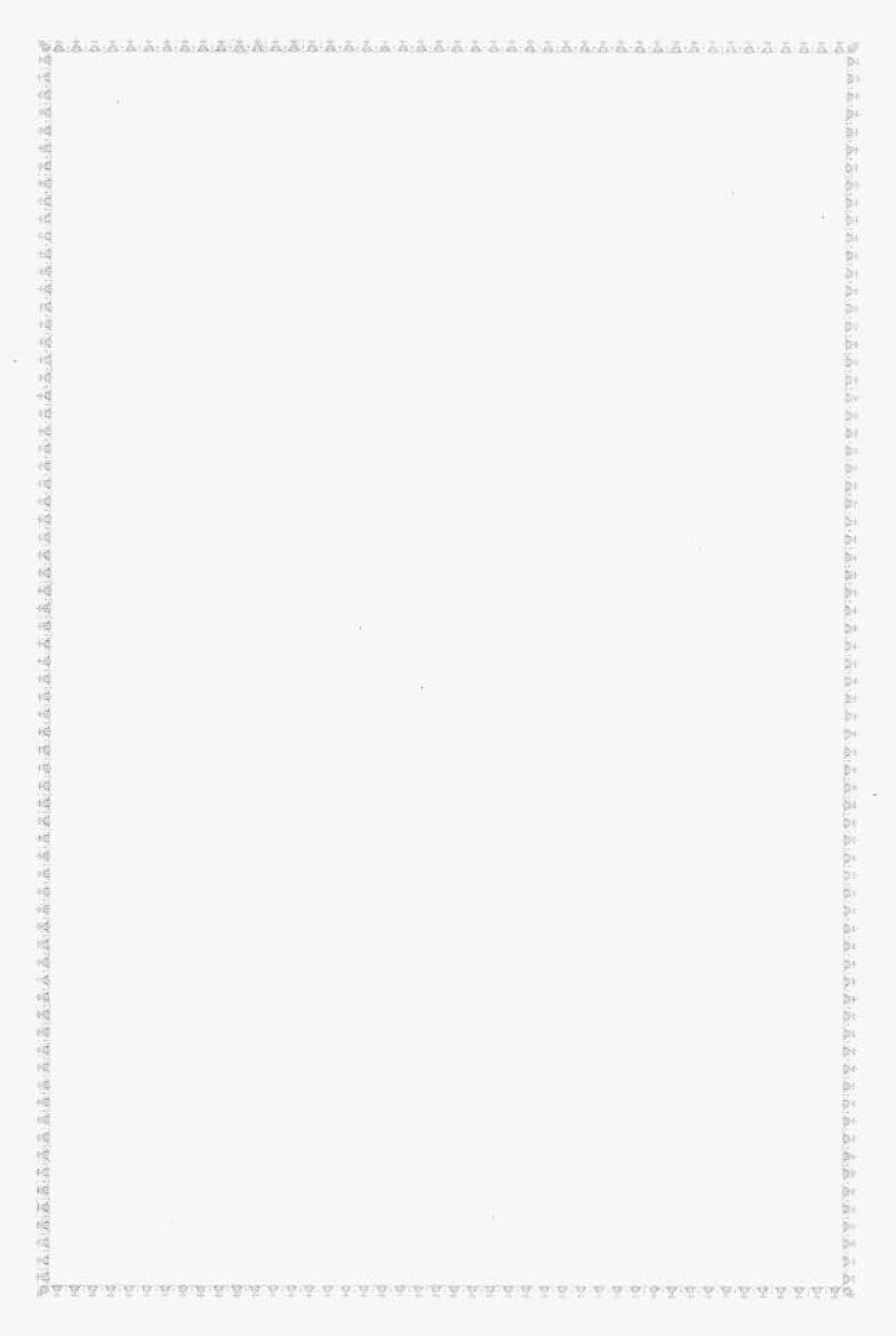
وحَصِّن حياتك بالعدل..

واترك للوُجُودِ شَذاك..!!









بين الناس والحياة ميثاق، لا مناص لهم من احترامه والوفاء بـه إذا أرادوا أن يحيوها..

ميثاق استمَدَّ نصوصه من ضرورات الوجود..

وأول سطور هذا الميثاق حقيقة تقول: "عيشوا أحرارًا" .. والإنسان هنا، فوق أرضنا هذه، ووسط عالمه هذا، ليس شيئًا عابرًا.. ليس ضيفًا عارضًا، ولا واحدًا من أبناء السبيل..!

إنما هو خليفة الله، من غير مبالغة فى شأنه، ولا مجاملة له..

هو خليفة القوة القادرة الحكيمة التى يحيا الكون كله فى كنفها، ويمضى فى حركته وفق قوانينها..

هو أستاذ حياته، وصانعها، والمسئول عنها..

وهو مسئول عن الكوكب الذى سادَه، وأمسك بزمامه.. مسئول عن الحياة التى حملت اسمه، وصار اسمها "الحياة الانسانية" .. مسئول عن مصيره كنوع متميِّز، اختار طريقه، ولن يُسمح له بالتقهقر، أو بالهروب..!!

ومسئولية النوع.. المسئولية الانسانية كلها، تتكون من مسئوليات الأفراد الذين ينتظمهم الجنس البشرى..

ومن ثم، كان لكل فرد مسئولية مزدوجة.. مسئولية تجاه مصيره، ومسئوليته تجاه المصير الإنساني جميعه..

وكل فرد يحمل مسئوليته تجاه نفسه، يحملها في نفس الوقت تجاه البشر كلهم..

والأسلوب الذى يختاره لحياته، يؤثِّر تلقائيًا، وبنسب متفاوتة، فى حياة النوع بأسره..

وامتزاج مسئولية الفرد عن نفسه بمسئوليته عن نوعه، يرفع من مستوى هذه المسئولية، ويضاعف من تباعتها وخطرها.. الأمر الذى يتطلب توفير الفرص اللازمة للقيام بهذه التبعات..

"أنت مسئول" ..!!

عبارة تبدو خفيفة، سريعة، عابرة.. ومع هذا فليس فى الحياة الإنسانية كلها ما هو أثقل ميزانًا، وأخطر شأنًا من مدلول هذه العبارة..!!

* * *

ولكى تباشر مسئوليتك عليك أن تتحرك، وتعمل.. وقبل الحركة والعمل عليك أن تفكر، وتقرر، وتختار..

وأنت لا تعمل وحدك. ولا تفكر وحدك..

إنما يتصل تفكيرك بتفكير الآخرين، وتستمدُّ جهودُك العونَ من جُهودهم..

من أجل هذا، كان توفير الفرص لإنجاز مسئوليتك، يعنى فى نفس الوقت، ولنفس السبب، توفيرها للآخرين جميعًا..

ولكى يجىء تفكيرك سديداً، واختيارك رشيداً، ينبغى أن يكون

السَّداد طابع التفكير فى بيئتك كلها . فإن لم يكن، فلا أقل من أن تكون فُرصَة مهيأة لمن يقدر على اهْتبِالها والانتفاع بها ..

وفى مجال المسئولية بالذات، لا شيء يَهبُ السداد مثل الحرية.

يفكر الناس أحرارًا .. ويختارون لأنفسهم أحرارًا .. ويؤدون واجباتهم أحرارًا ..

* * *

إذا كنت مسئولاً عن إطفاء حريق، فيجب أن تتمكن من استعمال المضخات.

وإذا كنت مسئولاً عن إنشاء حديقة، فيجب أن تكون حرًا فى اختيار بذورها، وغرسها .

وأنت مسئول عن الحياة فى نموذجها الفردى الذى هو أنت. وفى مجالها العميم المتمثل فى كل مظاهرها .

من أجل هذا، يكون حقك فى اختيار قراراتك حقًّا ضخمًا، ضخامة مسئوليتك نفسها . وحقًّا خالدًا، خلود الحياة ذاتها ..!!

فوطِّد مسئوليتك بالحرية..

"الحرية" ..

انظر جَرْسَ الكلمة وشفافِيَتَها ..!!

إن لها رقة النسيم ولطفه..!!

وكأنَّ ذلك كذلك، ليدل على فرط بداهتها، وقداستها .!

أجل.. إنها من الضرورة، ومن الحتمية، ومن البداهة، بحيث لا تحتاج إلى الكلمات الضخمة كى تعبر عنها .. لا تحتاج إلى أىِّ من وسائل التوضيح والإثبات.. حتى الكلمة التى تدل عليها .. بسيطة بساطة

الحقيقة.. بدهية بداهة المطلق.. رقيقة، عذبة، وديعة..!!

وإنها لكذلك فعلاً.. ومن عائد القول أن يحاول أحد توكيد حق الأحياء فى الحرية..

فمادمتَ حيًّا، فأنت حر...

ومادمت مسئولاً؛ فالحرية أقدسُ حقوقك..

ذلك أن المسئولية تجد نفسها، وتحقق كيانها حين تعيش وتعمل فى مُناخها الطبيعى، ومجالها الحيوى، الذى هو "الحرية"..

ولقد أتى على الناس حينٌ من الدهر، كانوا يمارسون مسئولياتهم فى ظل الخضوع.. وأيامئذ، كان التأخر يأخذ بزمام القافلة الإنسانية إلى الوراء..

ولم تكن القافلة تُفلت من قبضة التدهور والانحطاط، إلا حين يظهر فيها فرد أو أفراد يباشرون مسئولياتهم فى ظل الحرية، ويَدْعُون الناس إلى هذا النهج القويم..

عندئذ، كانت المسئولية الحرة تقود القافلة إلى مشارف الحقيقة، وكانت شمس المعرفة تغمُرها بالدفء والضياء..

إذا باشرتَ مسئولياتك فى ظل الخضوع والعجز فإن العُقْم يغتال حياتك ومواهبك. ويجعل منك نفاية آدمية..

أما إذا باشرتها فى ظل الحرية وحِمَاها، فإنك ستكون لا ريب علامة من علامات الرشد الإنسانى فى قومك وبيئتك..

ونَبْذُ الخضوع، لا يعنى نبذَ القانون..

كما أن العمل مع الحرية، لا يعنى التشيع للفوضى..

ذلك أن القانون العادل، تنظيم لحركة الحرية وسلوكها.

ومواد القانون. أشبه ما تكون بعلامات المرور..

إن جهاز المرور لا يجرِّد الراكب من عربته، ولا الماشى من قدميه.. وهو لا يتحكم فى المشاه، ولا الركبان، مُحاوِلاً وقف حركتهم، لكنه ينظم العبور والتلاقى حتى يمضى كل فى سبيله آمنًا مُعافًى..

كذلك القانون العادل مع الحرية..

إنه ينظم استعمال كل لحريته دون أن يسلب منها شيئًا..

فاحترامك هذا القانون لن يكون إذن خضوعًا؛ إنما يكون استمرارًا لمباشرتك حريتك.

أما الخضوع، فهو الاستسلام الذليل لكل تحكُّم غير مشروع.

وكل مسئولية تعبر عن ذاتها فى ظل هذا الخضوع. تتلوث بآفاته ويصيبها من نزواته، فتضطرب الأمور بين يديها ولا تثمر سوى أعمال هزيلة، وحُطام يطفو فوق العباب..!!

فلا تغرِس أعمالك؛ ولا تبذُرْ مسئولياتك فى تربة الخضوع أبدًا.. وتعامل دومًا مع الإقناع، لا الإذعان.. ومع القانون لا التحكم..

وإنك على هذا لقادر كائنًا ما كنت؛ وكائنًا ما يكون عملك.. أطِع القوانين التى وُضعت لصالحك..!

وامزج الطاعة بالقانون، مع الولاء للحرية مزجًا يجعل منهما شيئًا واحدًا يتحول إلى قوة تدفعك وتهدى خطاك..

وأَسْهِم بلا تردد فى أن تظل قوانين بلادك صالحة وعادلة..

* * *

قلتُ لك أيضًا، إن العمل مع الحرية لا يعنى مُسايرةَ الفوضى. فطبائع الأشياء تعلمنا أنه لا سبيل ـ أىّ سبيل ـ لأن تنعم بحريتك إلا

إذا تركتَ الآخرين ينعمون بحرياتهم..

فلكى تحتفظ بحريتك عليك أن تمكن الغير من الاحتفاظ بحريته.

لعلك تعرف قصة الرجل الذى كان يجلس إلى جوار آخر فى حديقة فتثاءَبَ وبَسط ذراعيه حتى صكَّتْ أصابعُ يده أنفَ جليسه.. فلما استهجَنَ الجليس حركته هذه. قال له: أنا حر..

هنالك أجابه الآخر. أجل. أنت حر. ولكن حرية يدك، تنتهى حيث تبدأ حرية أنفى..!!!

إن هذه الطرفة أصدق تصوير لسلوك الحرية..

فحريتك يجب أن تسلُك طريقها فوق الأرض لا فوق رءوس الناس..!!!

وحريتك، يجب أن تعمل فى وفاق تام مع حريات الآخرين.

* * *

واذكر دائمًا أن الحرية مِعراج الحياة. وليست "الشماعة" التى تُعلق عليها الأخطاء..

إذا تورطت فى خطأ، أو نقيصة، فلا تقل: أنا حر، فليست الحرية صندوق قمامة، بل كن شجاعًا، وقل أنا مخطىء. وكن أكثر شجاعة، وحاول تصحيح خطئك..

إن شر ما يُلحقه إنسان بنفسه، وبالناس؛ وبالحرية من أذى، هو التبجّح بالخطأ واصطناع الحرية "مِشجبًا" للرذائل والأخطاء، وقفازًا تخفى به الأيدى الآثمة جرائمها..!!!

حرك مسئولياتك داخل النطاق الفسيح لحريتك العاقلة العادلة ولسوف تتحول هذه المسئوليات إلى خَلْق، وإبداع..

وسترى نفسك سيداً، حتى يكون مكانك فى المجتمع آخر مكان فـى آخر صَفّ..!!

إن الإنسان الذى يباشر مسئوليته فى ظل الحرية، والثقة، يجعل مـن كل كرسى يجلس فوقه عرشًا.. ومن كل عمل تتناوله يداه معجزة..!!

* * *

والحرية والعدل توأمان..

ولن تلتقى قط بظالم، إلا ويحمل تحت ضلوعه روح العبيد، وصغار الأذلاّء..!!

ولن تجد أحداً يؤمن بالحرية ويقدسها، ثم يرتكب ظُلمًا، أو يقترف بَغْيًا..

تَرابُطُ عجيب، قلَّمـا يجمـع بيـن اثنيـن، مثلمـا يجمـع بيـن هذيـن التوأمين الحرية، والعدل..

كن حرًا؛ تكن عادلاً..

وكن عادلاً؛ تَعِشْ حرًا..

اكفر بالحرية؛ تستبح كل حق..

واكفر بالعدل، تضطهد كل حرية..!!

والظلم كئيب، صغير، مدمّر..

هناك حديث قدسى يتحدث الله به عن نفسه فيقول: "يا عبادى.. إنى حرّمتُ الظلم على نفسى، وجعلتُه بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا"..

أرأيت..؟؟

لم يقل الله إنى حرمت على نفسى، إلا هذه المرة..

والله بطبيعة الحال، مُنزّه عن كل نقيصة، فلمـاذا يؤكـد نفـى الظلـم

عنه، وبهذا الأسلوب الصارم..؟؟

إن ذلك كذلك، ليعلّمنا ، "أن أبا القوانين" التى تحكم الكون كله ـ هو العدل..

وإذا كان الله الفعَّال لما يشاء، قد حرَّم الظلم على نفسه، فلماذا يكون الظلم بالنسبة إلينا..؟!

من أجل هذا ، أقول لك:

"حَصِّنْ حياتك بالعدل"..

إن ميزان العدل دقيق.. ولا بد لك من يقظة الروح والعقل لتدرك الفوارق الخافتة بين ما هو عدل، وما هو ظالم..

إذا اختلستَ من الأموال العامة للأمة؛ فأنت ظالم..

وإذا أسرفتَ فى مالك الخاص بك؛ فأنت ظالم أيضًا..

إذا اعتديت على غيرك؛ فأنت ظالم..

وإذا ابتهجت لعدوانٍ وقع من غيرك؛ فأنت ظالم أيضًا..

إذا اغتصبت حقوق الآخرين؛ فأنت ظالم..

وإذا فرطت فى حقوقك؛ فأنت ظالم أيضًا..

إذا أسأت الظن بغيرك؛ فأنت ظالم..

وإذا عرَّضت نفسك لإساءة الظن بك، فأنت ظالم أيضًا..

إن العدل بعيد الأعماق، واسع الآفاق.. ونَقِيضُه الظلم كذلك..!!

* * *

والعدل، هو التزام الحق..

والظلم، إهدار الحق، أو التحايُل عليه..

ولكى تحيا حياة عادلة؛ امضِ فى حياتك وفق الحق وحده..

لا تتخطَّ رقاب الناس فى الحياة.. وخذ دورك المشروع دون أن تُنحِّى أحدًا عن حقه ومكانه..

حين تسعى لمنصب لستَ به جديرًا فسعيك هذا ظلم..

حين تنتحل جهود غيرك، وتعزو لنفسك ما لم تفعل، فانتحالُكَ هذا ظلم..

حين تختص نفسك بامتيازات لا حقَّ لك فيها، فعملك هذا ظلم..

حين تلتمس بالوساطة، أو بالرشوة ما ليس لك بحق، فعملك هذا ظلم..

وأنت ظالم إذا احتقرت آلام الناس، ولم تبصر منهم سوى عيوبهم..

ظالم، إذا قدمت للناس شر ما عندك، وطالبتهم بخير ما عندهم..

ظالم، إذا لم تقنع بالرغيف الذى معك، وذهبت تقتنص اللقمة التى مع غيرك..

ظالم، إذا حصلت على ثروة، لا يتكافأ معها جهدك المبذول.

ظالم، إذا حسدت غيرك على فضل يُعجِزكَ نَوالُه..!!

* * *

ليست الحياة الإنسانية مائدة قمار.. ولكنها مُباراة نظيفة تدور فى أعلى مستويات النزاهة، والتكافؤ، والصدق..

وأنجَزُ قوانين الحياة، هو القصاص..

والقصاص يرفض التسامح مع الظلم.. كانه يعلم أن الظلم دمار الحياة وخرابها، ومن ثم، فلا بد من كبحه، وهو فى عالم النُّطَف..!!!

وإن أصدق تبيانٍ لعدالة القصاص وصرامته ليتمثل فى قول الرسول عليه السلام: "اعمل ما شئت.. كما تَدينُ تُدان"..!!

أجل، كما تدين تدان.. وبالكيل الذى تكيل به، يُكَالُ لك..

فَحصِّنْ حياتك بالعدل..

وأمِّن مصيرك بالعدل..

ولا تترك وراءك آثار قاطع طريق..

بل اترك للحياة عطرك، وطُهرك، وشذاك..!!

إن حياتنا الإنسانية تعتمد فى استمرارها ونمائها ـ على رصيد الخير الذى يُخَلِّفه لها ابناؤها الأبرار..

كل كلمة طيبة.. كل سلوك عادل.. كل خطوة سديدة ـ إنما تُشكِّل الرصيد الذى تنفق منه الحياة على نفسها، وعلى أبنائها..

ذلك أن الحياة تنمو بالقدرة..

وكل فرد يستطيع أن يكون قدوةً بالخير الذى معه..

وعلى الرغم مما يكون لك من خطأ، فأنت قادر على أن تعطى القدوة معك من صواب وفضائل ـ شريطة أن تكون هذه الفضائل ثابتة، عادلة، صادقة..!!

فاترك للحياة شذَى إنسان، حَمَل تبعات رشده فى أمانة..

وقضى أيامه معها فى نبل، واستقامة، وإخلاص..

* * *

وبعد ..

وقبل أن أطوى هذه الصفحات، منتهيًا من كتابتها..

وقبل أن تطويها أنت، منتهيًا من قراءتها..

دعنى أذكرك بأن شَحْذَ قُوى الحياة يتطلب أن يتواصى الأحياء بالخير وبالحق دومًا، وأن يُذكِّر بعضهم بعضًا بمواثيق النهوض..

وأظننا عبر هذه الصفحات، قد تواصَيْنا وتذاكَرْنا..

ولسوف يحمل كل منا من أمانة هذا الحديث وتبعاته ما يطيق.

وسيكون أكثرنا انتفاعًا به، أكثرنا استجابة له..

وصحيح أن العمل وَفْقَ الحق والخير، أمر صعب.

ولكن اذكر جيدًا، أنك إذا لم تُواجه الصعاب من أجل بلوغ حياة عظيمة مستقيمة..

فستواجه نفس الصعاب أو أشد - حين تعانى حياة هابطة سقيمة..!!

ولأن تُعانى متاعب الصعود إلى القمة.. خير وأهدى من أن تعانى متاعب الانحدار إلى السفح..!!!

فاستعن بالله، ولا تَعْجَز..

وفى غبطةٍ، وتحمّل تبعة الوجود..

وفى شجاعةٍ، تقبَّل أمانة الحياة..

* * *



فى هذا الكتاب

❋ ❋ ❋

